يوميات
شارع 14

مجموعة قصصية

مريم لطيفي

مراجعة: احمد عادل صاكي

يوميات
شارع 14

مجموعة قصصية

فجأة ترمقني نظرة من دائمي الجلوس أمام عتبة البيوت أو نفر من الماشية على الرصيف و حين ذاك أضم رأسي بين يداي العاريتين خوف من الحكايات التي طالما أخافنا أهلنا و امهاتنا و أخواتنا من تسربها في الشارع على نزاهة الأناث. واذ الواحده ارتكبت خطاء ما، تقيم القيامة الكبرى فالشارع لاينتظر حتى الأناث تثبت برائتهن بل الحكاية تنتقل من بيت الى بيت و حتى يعلق كل شخص وجهات نظره و يضيف عليها كلمات حتى تصبح القصة مختلفة تماما عن الواقع!

مريم لطيفي

من قصة بيتنا العتيق

هرمنوبطيقا للنشر والتوزيع

مجموعة قصصية

يوميات شارع 14

مريم لطيفي

مراجعة : احمد عادل صاكي

هرمنوبطيقا للنشر والتوزيع

سرشناسه	**: لطیفی، مریم، ۱۳۶۳**
عنوان و نام پدیدآور	: یومیات شارع ۱۴/ مریم لطیفی؛ مراجعه احمدعادل صاکی.
مشخصات نشر	: آبادان: هرمنویطیقا للنشر و التوزیع، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۹۰ ص.؛ ۵/۱۴×۵/۲۱ س‌م.
شابک	: ۸۰۰۰۰ ریال : 978-600-7114-51-3
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا
یادداشت	: عربی.
یادداشت	: بالای عنوان: مجموعه قصصیه.
عنوان دیگر	: مجموعه قصصیه.
موضوع	: داستان‌های کوتاه عربی -- ایران -- قرن ۱۴
موضوع	: Short stories, Arabic -- Iran -- 20century
شناسه افزوده	: صاکی، احمدعادل
رده بندی کنگره	: PJA۵۲۹۹/ل۶ی۹ ۱۳۹۶
رده بندی دیویی	: ۸۹۲/۷۳۶
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۶۸۲۴۹۱

هرمنویطیقا للنشر والتوزیع

یومیات شارع 14
مریم لطیفي

شابك. ۳-۵۱-۷۱۱۴-۶۰۰-۹۷۸
الطبعة / السنة. الأولى/ ۱۳۹۶ش /۲۰۱۶م
عدد المطبوع. ۱۰۰۰
تصميم الغلاف : بدر نصاري
السعر: ۸۰۰۰ تومان

آبادان ،پل امام رضا(ع) ،انتهای طیب ۱ ، ۲۰متری ، سمت راست بن بست أول ، پلاک۳۱
همراه ناشر۰۹۱۶۳۳۱۶۱۵۸ .

الإهداء

إلى من تقاسم معي مشوار حياتي
بكل حب وإخلاص أرفع هذا الكتاب

المحتوى

تقديم 5

في سوق عبدالحميد 7

كابوس المرأة العجوز 15

الفنجان المقلوب 23

المفترق 32

يوميات شارع 14 35

بيتنا العتيق 47

البائع العجوز 56

تقديم

الإنسان الاهوازي بما له من خلفيات وما عليه من هموم وأحلام وهواجس وتطلعات هو قصةُ كلِّ القصص ، سواء كانت نثرًا أو شعرًا ، نشأت معه تلك الهموم والاحلام والتوجسات فلابد أن يعبر عنها بشتى الطرق تعبيرًا صادقًا يعكس ما يُشغل فكره ويجول فيه.

الصحيح أن الادب الاهوازي ادب شعري قبل أن يكون أدبًا نثريًا وأن الذائقة العامة للاهوازيين تتجه صوب الشعر اكثر منه للنثر وذلك لاسباب يتعذر طرحها هنا لكن للنثر أيضًا دور فيه فالمجالس الاهوازية المتمثلة بالمضايف مثلا ، عامرة بتناقل الحكايات والقصص التراثية فهو يمتلك مخزونًا نثريًا أيضًا وإن تقزم أمام مخزونه الشعري لذلك نستطيع القول ان القصة والحكاية أو الفن القصصي هو أيضًا قريب لروحه وشخصيته في كل زمان ومكان.

قيل في القصة انها أسلوب إبداعي من أساليب البيان ، يتخذ فيه القاص تتبع الأثر ، وهو يعتمد على عناصر أهمها:

١.الفكرة الرئيسية التي تجري الأحداث في إطارها
٢.البناء والحبكة وتشمل المقدمة والعقدة والحل
٣.أسلوب كتابة القصة
٤.الشخصيات.

لانريد الخوض في تفاصيل تلك العناصر فالامر قد أُسهب في الكتابة عنه.
لقد ظهرت في الأونة الاخيرة وذلك بفضل النت والشبكة المعلوماتية المتمثلة بـ جوجل وغيره ظهرت في اهوازنا الحبيب حركة شبابية مباركة وان كانت قليلة

النضج بعض الشيء فنشطت في مجالات عدة منها الادب بشقيه الرئيسيين وهما الشعر والنثر.

اما في مجال الشعر وهو اكثر المجالات توفيقًا لدى الاهوازيين ، الامر واضح للجميع لكن في مجال النثر لاسيما القصة والحكاية ، خرجت مؤخرًا اقلام تستحق أن تطرح في الساحة الادبية وتحديدًا مجال الفن القصصي حيث كتبت القصة والحكاية والقصة القصيرة جدا أو الومضة و....

لكننا مازلنا في بداية الطريق فعلى القاص الاهوازي الحديث المولد ، التطرق إلى مواضيع كثيرة جدًا وإستخدامها كمادة دسمة لرواياته وقصصه وحكاياته.

ما يدعو للتفاءل ويبشر بالخير هو ظهور كاتبات اهوازيات ابدين إهتمامًا بارزًا في خوض تجربة الكتابة في مجال الفن القصصي وهذا مدعاة للسرور والفرح كيف لا وإن إشراك المرأة وتواجدها في السوح الادبية امر لابد منه فهي نصف المجتمع ولها ما للرجل الاهوازي من إستحقاقات.

السيدة مريم لطيفي من السيدات الاهوازيات ولديها كتلة من الحماس والشغف لخوض هذه التجربة وها هي الان تقدم لنا مجموعة من القصص والحكايات حدثت على ارض الواقع ومن تجاربها الشخصية أيضًا قد عاشتها بكافة تفاصيلها ، تعرضها لنا عرضًا مسرحيًا متسلسلًا تكون هي المخرجة والراوية وأحد اهم الشخصيات في نفس الوقت.

في الختام نحييها ونقول لها أن الوسط الادبي الاهوازي يشدّ على يدك ويتمنى لك نجاحًا مصحوبًا بالتقدم والتطور باذن الله تعالى.

احمد عادل صاكي

في سوق عبدالحميد

طلب «زاير غانم» يدها للزواج لكنها لم ترد له جوابًا بعد ، هو موظف متقاعد ذو مكانة اجتماعية مرموقة ، محترم ، طويل القامة يظهر بين الجمع دائمًا بدشداشته الفضية والبشت على كتفيه ، عندما تنظر اليه تلمع «الچاسبية» وتجلب الانتباه ، عادة يطوي اطراف البشت على يديه ويضعه وراء ظهره ويمشي واثق الخطوات ، علبة التبق في جيبه أصبحت جزء لاينفك من وجوده ، الشماغ ملفوف بطريقة أهوازية وحين يمشي تتصاعد أصوات التحايا من اليمين واليسار نحوه ، لم يتسرع في الكلام ، يمسك الحوار بيده ، يعتاش على مايتلقاه من راتب التقاعد وحده منذ وفاة زوجته والآن وبعد محاولات كثيرة ومفاوضات مع أولاده وبناته لم يحصل على موافقتهم على الزواج.

أصبح أولاده وبناته في جبهتين مختلفتين. أدرك «زاير غانم» ان النقاش معهم لا يجدي نفعًا فجمع قوته ممسكًا سيجارته على الانتهاء في وسط خطاباتهم فقال لهم بكل ثقة :

-(اهتموا بعيشتكم وانا أهتم بعيشتي...مالكم حايه بيَّ...)

ذات يوم لمحها في وقت الظهيرة تشتري الكباب من أحد المطاعم وكانت برفقة صديقتها. يتكرر هذا المشهد بين فترة وأخرى فان دخل الأسرة لايسمح بالبذخ... كانت تقف عند الصندوق لدفع الحساب حين رآها لأوَّل مرة ويظهر نفنوفها من تحت عبائتها يتلامع بزُهُوره الذهبية و كان كلما تهز جسمها النَّحيف من دون قصد ، كلما تسرب حبها في قلبه. لم يعد بإمكانه الانتظار واتخذ القرار.

***

تختلط أصوات الباعة وغوغاء المارة في سوق عبدالحميد الواقع في حي نادري بالأهواز ، الناس منتشرة في كل الاتجاهات والشوارع مكتظة بالسيارات والزحام

أصبح جزءًا من الهوية الجديدة للمدينة كل هذا والناس كالنمل تبحث في الارض عن لقمة عيش.
كان البائعون المتجولون الذين قد افترشوا الأرصفة لعرض بضائعهم قد سبقوها. لكل واحد منهم طريقته الخاصة في الصياح لجذب الزبائن.

حين دخلت الشارع ، شعرت ان البساطة أخفتت أصواتهم وأخذت أعينهم تلاحق خطواتها الأنثوية. اجتاحها إمتعاض حين أدركت ان شرارات تلك عيون السوق مصوبة نحوها... فوهبت طاقة اضافية لاقدامها فأسرعت الخطوات نحو صديقتها التي استقبلتها بتحية خاصة ونكهة عتابية :

- (يا هلا.. شنهي تتدللين علينا... شو جايه متأخرة اليوم...)

:- (لا خالة وين متأخرة...انت غابشة ع الوادم... أوَّل الصبح ياهو يغبش ع الشيل)

كان صبي«الچايچي» يحمل بيده صينية فيها أكواب الشاي متجهًا نحو صاحب محل الأقمشة. وضع كوبًا من الشاي على منضدته ليخرج مسرعًا نحو محل آخر.

كان «يَبّار ابوقماش» يراجع دفتر حساباته لابسًا نظارته الكبيرة السميكة وكأنها تمتص متاعب شيخوخته ، ثم يلقي بنظراته الفاحصة عليهما.

قالت صديقتها :
:- (ها...ها.. چنه گاعِد يْچَبّك حْسَابَاتْنا... احنَ صِرنا مِثِل الصَّانِع عِندَه.. نبيع له وهو گاعد بس يشرب چاي وايزود الأسعار علينا.... وتَالي يْوَدّي فليساتنا للمراه.. حتى چاي ما تْسوّي لَه... خَي عُونَك على الچاي)!

ثم أرسلت نظراتها اليائسه حول المحل والأقمشه فتمّنت لو أنّ الحظ يدخل بابها فجأة دون أن تحسّ به وتمنّت لو انها تملك هذه الكمية من القماش ومساحة المحل واجتاحها شعور بالغبطة ولكن نصيبها من الدنيا هذه البقعة الرمادية وبسّاطتها المتواضعة على الرصيف والخوف رفيقها الدائم حيث تتجنب وتتراقب كل يوم قدوم ازلام البلدية الماجورة حيث تلعب و تعبث و تركل و تشتم و تسب كل من على الرصيف قد فرش بسطيته وفي غضون دقائق ليتبدل السوق وأصوات الباعة الى صراخ وسبّ وشتم وحزن من ضبط البضاعات و ركل الأمتعة في الشارع أو أخذها وذلك لعدم دفع الضرائب وفي هذا الحال سرعان ما تجمع كل واحدة منهن أغراضها وتلملمها عند الاحساس بقرب وصول هولاء الرجال فتشدّ صرتها وتلج في محل ابوقماش المجاور حتى تنتهي مسرحية البلدية.. وذلك يتكرّر بين الفينة والأخرى...

ابتسمت وخاطبت جاراتها وقالت لهن بصوت ممزوج بشيطنة أنوثية:

:- (اليوم اريد ادللچن بچاي من ايدي... هاي الفلاكس... هسّه أصبّن الچن چاي... بعد ايش تردن...)

إمتلأ الفضاء فرحًا. فراحت كل واحدة تعبّر عن شكرها لها ثم استمر الحديث عن السوق و أوضاعه والركود الحاكم عليه.

همست صديقتها بأذنها حيث لايسطيع أحد سماعها فقالت :
:- (ها خيّه اش سويتي.. بالله دِگِلّيلِي ودّيتي الجواب...)

حرك هذا الكلام أنوثتها فتسارعت دقات قلبها... ردّت وكانها لم تعر انتباها :
- (لا خيّه... عوفي... هوآنا ناگصه مشاكل؟!...شِ تْگول علي الناس... إبنيّه أم (١٤

:- (أووووو... اي شتگول عليچ الناس.. مرة بْوحدها گاعده... انت كظّي هاي السوالف واگعدي... نصيب وياي.. ماحصلتي من الأوَّل على الآقل من تالي..يا بعد حظي..)
:- (تاني هسا.. انوب أسولف لِچ..)

:- (انا اش حصّلت من كلام الناس... ذاك هو... هالعافني وراح...ياهو نشد علي)

ركض نحوهما صبي «الچايچي» مسرعًا كالسهم بين الزحام قائلًا:
:- (اجا زاير غانم.... اي زاير غانم..)

اصفرّ وجهها وتسمرت في مكانها وخطرت في ذهنها عشرات الأفكار وتصوّرت ان عيون السوق تتابعها واصبحت محطة الانظار ، لمحت الدشداشة الداكنة اللون من بين الزحام التي تقترب منها بهدوء واطمئنان ورقي. لم تعد تنتبه للناس فملاءها الحنان وحب الحياة وأحاسيس لم تشعر بها من قبل.
لأوَّل مرة تشعر بهذه المشاعر فتسرب شوق بداخلها لم تكن تتوقع تسريبه ، عبر شريط سريع من تأريخ حياتها أمام عينيها المتحمسة ، قرصتها جارتها فاستيقظت من غفوتها ورجعت للصحوة مرة أخرى واستعدل ذهنها الشارد.
القى التحية على النسوة اللواتي ينظرن إليه بحيرة وحب استطلاع يظهر على ملامحهن. قال بصوت رجولي أنيق:

:- (سلام عليكم)
:- (عليكم السلام)
اقترب نحوها وجلس بجانب بسطيتها بهدوء قال بصوت خافت وهو يقترب برأسه منها والكل يموت شوقا ليدس أنفه بين طيات حديثهما فضولا. نظر إليها نظرة الولهان المتلذذ. جلب انتبهاهه وشم الحاجبين المتعاقدين اللذان يعكسان

سحر الجمال الاخّاذ بشكل مضاعف حينها ادرك ان غبار الزمن ترك بصمته على ملامحها وبعثره بشكل فوضوي الا عينيها الجميلتين.

- اروى من العنب خده ولاتن
جْعوده دگّن الساگه ولاتن
جريب الحوشنه وصلن ولاتن
إيفلن چِي شافن الشيبات بيَّ (١)

لم تقتنع بمشاعرها نحوه ، فالمشاعر تغش أحيانا لكنها تبقى مشاعر لايمكن الافلات منها بسهولة... لم تستطع كسر الجليد السميك ما يعرف بكلام الناس فتدوس على رقبتها وتختار أن تعيش في ظل كلام الناس...

***

زقزقت العصافير في ساحة البيت ، حان وقت صلاة الفجر... لابد أن تنهض في هذا الوقت بعد سماع صوت المؤذن. أدت الصلاة ووضعت إبريق الشاي على الموقد. اعتادت على النهوض المبكر مع صفير غليان إبريق الشاي كأنّه يحدثها وتحدثه فيشتكي همه لها وتحكي له همومها.

أخرجت رغيف الخبز من التنور الطيني قد أحضرت عجينته البارحه ، تطوف رائحه الخبز الحار وتجول في ساحة البيت. فطرت بالجبن مع الخبز الحار وبعد ذلك لملمت الفراش ووضعته في الغرفه جلست على البساط الممتد في ساحة البيت ثم قامت تمشط شعرها وتسرح ضفائرها. عدلت شيلتها الكاظمية بعدما وضعتها على شعرها.

تكلمت مع نفسها:

:- (خاله..انا اش يايبني...الناس شِ تْگول علي..كلش زين...بس...)

---

(١) لشاعرها

ازدردت ريقها وراودها شعور إشمئزاز غريب فتفحصت حالتها وتأملت قليلا في منعطفات حياتها. وضعت قليلا من دقيق العطور على ثوبها ثم جلبت صُرتها وتركت البيت القديم التي تسكنه منذ وفاة زوجها الذي لم ترث منه الا بيتا صغيرا متواضعا في زقاق ضيق يلوذ بحي الصخيرية وسط الأهواز.

اقفلت الباب الحديدي الصغير المتآكل من أساسه حيث يتصاعد صريره في هكذا أحيان فيجوب الزقاق. حملت صرّتها ولفت عبائتها وغادرت نحو سوق عبدالحميد.

في بوابة السوق ترجلت من سيارة الأجرة بعد ما قالت :
-(عدك نازل خويه...هاك تفضل...)

قدمت الكراء واتجهت نحو عملها حيث ينتظرها الشارع بمفاجآة وهواجس تراودها بين حين وآخر. اخذت نفسا عميقا وفرشت بسطيتها على الرصيف... فتحتها.. فاحت منها رائحة البخور والمسك. رتبت أغراضها والقيت التحيه على الاخريات وشاركت معهن الحديث الصباحي المعتاد. فجأة اخترقت حديثهن إحدى البساطة :
- (سَمَّن بِسم الله.. ايا المأمور... ايا المأمور..حبايب گومن...علي وياچن)

اختفت الابتسامة فحلت مكانها تلك الدهشة الضبابية الحائرة التي لطالما كانت بانتظارها وأحسَّت انها على وشك أن تبكي.

سرعان ما وصلت اليهن أصوات النحيب وسب وشتم الباعة ورجال البلدية من بعيد فسببت الكثير من الاحباط واحست انها على وشك صراخ وسرعان ما أفاقت وتبادلت نظراته مع صديقتها مختلسة وخائفة تمنت لو تكون هذه الأحاسيس حلم قد تفيق منه بعد لحظات لكنها رفعت رأسها فوجدت أحد رجال

البلدية واقف أمامها يصرخ بوجهها بصوتٍ مرتفعٍ يتذمر غاضبًا يوجه صرخته إلى زميلتها وتارةأخرى نحوها وظلت هي الأخرى تحدق بوجهه.

شعرت باختناق ممزوج بالرهبة التقطت أنفاسها ببطء وحاولت تقنعه انها لم تسبب الأذى لأحد وانها بحاجة للبسطية وبيع الشيل لكنه كانه لايسمعها ولم يعر لكلامها اهتماما. قذف بالبسطية إلى الطرف الآخر من الرصيف بعد ما عاث بها فسادًا.

تصاعدت وتيرة قلبها بشدة وظلت تبكي بصمت لم تكن قادرة على صراخ ثم شعرت ان الناس المارة يلقون عليها وصديقتها نظرات متعاطفة متأملة وبعد ذلك يستديرون. انبثق في خاطرها على الفور ان لو كان زاير غانم هنا فاهتز قلبها وظلت تحدق في بضائعها التي أصبحت مبعثرة الأشلاء هنا وهناك على الرصيف وظلت تتراقص لها صورة زاير غانم على جدران محل ابوقماش..

كابوس المراة العجوز

إمتزجت أصوات الناس الصاخبة مع هدير السيارات في شارع وكيلي المنتهي إلى مفترق شارع نادري من اليمين ومن الشمال إلى بقعة علي بن مهزيار.

وعلى الرصيف الرئيس كان يتصاعد الدخان من أفران الدجاج في واجهة المطاعم الصغيرة وكانت رائحة المشويات تجذب المارة من بينهم الموظفين المتجهين إلى أعمالهم حيث ترى صبيان تلك المطاعم يلتمسونهم ويتوسلون إليهم ليكونوا زبائن حتى يحصلوا على إكرامية يسدون بها بعض مما يتمنون الحصول عليه.

فيما تنطلق الناس نحو أعمالهم والطلاب نحو المدارس والجامعات ، فيمتلأ الطريق بحفيف أقدامهم في يوم خريفي معتدل ، نهضت العجوز وإعتدلت من جلستها وزحفت بجسمها الممتلىء نحو عتبة باب غرفتها وعندما اقتربت إلى العتبة أرسلت نظراتها إلى الأعلى حيث السماء الزرقاء والحجر والاسمنت من الطابق العلوي الذي يحمل في طياته الوحدة والفراق والظلمة فهي قد إعتادت عليه بعد ممات زوجها قبل سنين.
كانت قد أجّرت الطابق العلوي لموظفات شابات وطالبات جامعيات وكنت أنا وصديقتي ممن استأجرنا غرفة من غرفها.

حين وصلنا سرعان ما قدمت لنا قائمة من التزامات السكن التي كان على كل نزيل أن يلتزم بها منها ساعة الخروج والرجوع والمبيت الالزامي ليلة واحدة في الأسبوع معها ، اخراج القمامة في وقت محدد وما إلى ذلك....
إجتاح صوتها المرتعش - بنبرة اصفهانية- ساحة البيت ففرّت العصافير المعشَّشة في ثقوب الجدران... وهي تخاطب نفسها كانها تجيب أحد ما:

-(بعد ممات ابني «علي» خسرت من الوزن.. نعم خسرت وزن وأصبحت نحيفة)

كل أسبوع مرة واحدة تخضب شعرها بالحنّاء وكان أكثر شيء يزعجها انك تخبرهاعن بياض شعرها وتذكرها بذلك وهذا غير رأسها الكبير وشعرها القليل الناعم وعينيها الجاحظتين المدورتين ، كانت كلما نظرت إليها اتذكر العجائز الثرية الصعبة المراس ذات كبرياء ولسان سليط تشتم الواحد على طول.
كانت قد فقدت كل أسنانها إلاَّ ثلاثة أسنان كبار وبلون شعرها. أساورها الحجيمات يلفتن النظر كلما حركت يديها ، يدور حفيفها في راسي.. نادت مرتين... ثلاث:
-(ننه... ننه... جده جده)
لكن لا رد فتتذمر وتشتم:
- يا بنات الكلب يالملعونات!

و تزحف نحو دبة الماء لتملأ السماور وهي لاتزال تتابع الطابق العلوي بنظراتها. أجبتها:
:- (نعم جدتي.. ها أنا قادمة...)
كنت أناديها جدتي لأنني كنت في عمر حفيدتها وأشعر ان هذا الخطاب هو ما سيشكل رابطا عاطفيا بيننا
:-(تعالي إلى هنا... ساعديني يا بنتي....)

انزل وأساعدها على تحضير الشاي للفطور وتقطيع الدجاج للغداء. طرقات الباب الحديدي الثلاث تتابعت.
قالت لي بصوت مرتعش غليظ:
:- (من هو يا جدة.. في هذا الوقت ؟)

و راحت تسب وتشتم ، حينها رفعت عكازتها الخشبية التي اشترتها من مكة والتي تتباهى بها وتذكر ها حج بيت الله.. وضغطت على زر الآيفون..

ظهر في عتبه الباب شخص نحيف محدب مرهق... انها السيدة " خاكبور" تدخل من الممر المظلم.
تفر الوزغات من صوت خرير نفسها. يمتزج بتذمر العجوز وانزعاجها من رؤيتها في هذا الوقت من النهار.
تتكلم فتسألها عن ماتريد ولماذا جاءت لنا في هذا الوقت الغير مناسب وعن سبب الازعاج.
تجر نعالها المطاطي على الموزاييك ويختلط صوت العجوز مع صوت جرّ النعال ولم تسمعها السيدة خاكبور. تلقي عليها التحيّة ولم تنظر اليها وسرعان ما تقول لها اين تجلس وما لبثت الا أن ابتدت بالبكاء والنواح فابتلّت عيناها الرماديتان.
تفاجئنا أنا والعجوز وتسمرّنا نحدق فيها...انكمش قلبي من نحيب صوتها ودمعت عيناي وأمّا العجوز تدير وجهها وتمط شفتيها لانها قد تعكر مزاجها وجعلت يومها حزينا فقالت لها بصوت مرتفع:

:- يكفي.. يكفي البكاء... وماتقدرين تفعلين شيء...
و استمرت وهي ترسل نظراتها المستهزئه نحوها:
:- ماذا حدث لك ؟.. ابنتك...؟ مرة أخرى... ماذا جرى ؟... إشرحي لنا....
توقفت السيده خاكبور عن البكاء وبدأت تشتم بنتها حيث كادت تفلت اسنانها المصطنعات.
و تروي لنا قصة جدالها مع ابنتها وطردها من البيت وتجلس الجدّه متربعة متربصة مشتبكة اليدين أمامها لتسمع قصّتها جيّدا... وحالما عادت الأمور إلى حالتها الأولى ، تطلب مني العجوز ان أجلب طبقا اخرا لتتغدّى به السيدة خاكبور.
لمعت عينا السيدة خاكبور لسماع هذا الخبر المفرح. وراحت العجوز تحكي لها عن أولادها وكيف يهتم بها ويزورونها كل اسبوع وفي نفس الوقت وهي تنظر

بحسرة إلى الصور العالقة على رف الشباك وتتباها بابنائها وانا استغرب لسماع القصّة لانّني لم ار ابنائها يوما يأتون لزيارتها قط.

بعد ما تغدت وشربت الشاي انتعلت نعالها المطاطي ثم وضعت العباءة الفارسية على رأسها يخفي جسمها النحيف.. تودع العجوز وتتجه نحو بيت ابنتها ، ترتاح الجده لرحيل السيدة خاكبور فتعبر بذلك الارتياح باسلوبها الخاص فتشتمها وتسبّها ليرتاح ضميرها....

هكذا كانت العجوز رغم وحدتها ولكن لا تتوسل احدا ليجلس معها ويشارك احزانها وافراحها الا اذا كانت لديها مصلحة ما. كان الحنان والعاطفة قد ماتا بداخلها وأصبحت كالجليد فاقدا لما يمت بصلة للانسانية.

حان وقت ذهابي إلى الجامعة بعد أن طلبت مني أن أدخل أواني الطبخ في الغرفة المجاورة ثم أغفل بابها. تمنّت العجوز لي حياة سعيدة مع فارس أحلامى.
هي هكذا تشتم منا وتتمنى الخير من هناك.
ودعتها إلى وحدتها الغريبة وصور أبنائها الباهتة وشبح زوجها في الغرفة.

زحفت بصعوبة نحو سريرها لتأخذ قيلولة بعد الغداء كعادتها وحين وصلت إلى السرير وضعت يدها على المفرش تساعدها يداها الضخمتان سحبت جسمها السمين نحو السرير ، جلست بهدوء ثم التقطت أنفاسها.. انقلبت على ظهرها وتثاوبت فأخذت نفسا عميقا ثم زفيرا واغمضّت عينيها وسرعان ماغرقت في النوم وربّما يكون الحلم الذي رأته في منامها قد أثقل نومها:

- خفيفة تمشي على رجليها و ترجّلت من سريرها وذهبت نحو زوجها الذي كان ينتظرها عند عتبة الباب ليأخذها لتزور أولادها وكانت مشتاقة لرؤيتهم.. في ذلك الحين كن البنات نازلات السكن يهاجمن العجوز وهن في قمة الغضب وكانت

السيده خاكبور تقف إلى جانب الحائط وتنظر بهدوء وتضغط على أسنانها الإصطناعية وتبتلع ريقها ، لم يكن بامكانها أن تفعل أي شيء.

مسك يداها اللتين كانتا ترجفان فقال لها بهدوء:
- لا تخافي... فضحك بوجهها وصرخت.

استيقظت من نومتها مذعورة وخائفة وشعرت بظمأ شديد ، بسملت ورجمت الشيطان وحين نهضت من فراشها ، كان وقت احتساء شاي العصر قد حان.

السكوت الممل قد حل بغرفة الجدة ، كانت مضطربة وتسرّب الخوف في جسمها ، لم يفارقها ما رأته في المنام ، هي الآن أصبحت غارقة في الأفكار.
صوت هدير الشاي كسر جمود السكوت فقطع أفكارها فراحت تشرب الشاي مع سكر النبات لتهدأ.

حينها كنت قد عدت انا من الجامعة فجلست عند عتبة باب غرفتها وألقيت حقيبتي على سجادتها الثمينه لكنها لم تقل أي شيء خلاف العادة ولم تتذمر كالمعتاد.

لم تسألني عن الحصة وماذا فعلت وبمن التقيت كعادتها فقمت كي أذهب للطابق العلوي حيث غرفتي ولكنها دعتني لشرب الشاي معها وذلك للتخفيف من وحشتها.

سألتها عن صديقتها ، السيدة خاكبور ولكنها صرخت في وجهي وقالت:
- ليس من شأني أن أتدخل في شأنها... لعنة الله عليها وعلى بنتها.. لماذا تسألينني عنها ؟
و حينها شعرت بالخجل والتزمت الصمت وقلت في نفسي :

- ماذا بها العجوز هذه ؟

شربت الشاي على عجل ، فاستودعتها وصعدت السلالم المظلمة ودخلت الغرفه التي قد خيمت عليها أحلام وأشواق وآمال بعيدة لبنات يأملن التغيير في حياتهن الروتينيه بخبر وحدث كترقية عملهن أودخول حالة رومنسية.. موعد غرامي... كانت حياتهن رتيبة مع انها جيدة لايوجد فيها أي نقصان... هن كن سجينات أحلامهن الوردية في قفص رمادي يحملنه معهن حيث لم يتجرأ أحد الاقتراب منه.

كلما رجعن البنات من العمل كانت تواجههن العجوز في الممر المظلم ، لكن العجوز لم تعترهن أي انتباه ، فكانت تتظاهر بأنها لم تكن بانتظارهن..

يلقين التحيّة الباردة عليها ويصعدن السلالم متّجهات نحو الغرف. لم تعجبهن تصرفات العجوز. فقد كانت تقول لي دائمًا بصوت منخفض:
- تجاوز سن الزواج عندهن... ولم يصبحن امهات بعد...

وكانت تسخر منهن دائمًا وكانت تحدثهن بتفاخر واعتزاز حين تزوجت عندما كانت في عمرهن وحين أنجبت أربعة أولاد وهي تعيش مع حماتها (ام زوجها) لهذا السبب لم يرتحن كثيرا لصحبة العجوز ومجالستها ولم يقضين كثيرا من الوقت معها.

***

في المساء بعد أن شاهدت العجوز برنامجها التلفزيوني المفضل اطفأت التلفاز ولعنت من اخترعه واخترع برامجه التلفزيونية. كان القمر بدرًا تحتضنه السماء وكانت أشعته الفضية تضيئ قلوبا تعيسة كثيرة منها البنات نزيلات الطابق العلوي.

كانت تلك الليلة مناوبتنا أنا وصديقتي لننام عندالعجوز وكان ذلك احتراسا من السرقة فالبيت كان معرضا للسرقة كما تزعم العجوز التي صنعت لنا الكثير من القصص لتبرير قرارها.

حملنا المفارش والوسادات فنزلنا السلالم وكانت صديقتي تروي لي نكتة ودوي ضحكاتنا يدور حولنا. قفزنا من الدرجة الأخيرة معا.
كان هناك سكوت مخيف يتحكم في ساحة البيت ، السماور لا تزال تشتغل ، حبة سكر النبات ذائبة في داخل فنجان الشاي ،العجوز راقدة في سريرها دون حراك خلافا للعادة حيث كانت تتحرك فورا وتنهض فتقذف وابلا من الأسئلة نحونا عادتها عندما ننزل أنا وصديقتي.

لكنا استغربنا الموقف المفاجئ انا وصديقتي فوضعنا الفراش على الارض فاسرعنا لنتفقد العجوز.
تسرب الخوف بداخلنا ..
اقتربت صديقتي من العجوز...نادتها غير مرّة..
لم نسمع ردًا...
أسرعت نحو الطابق العلوي ، فنادت البنات للمساعدة...

يا الهي ماذا حدث للعجوز؟... تقدمت «بوران»التي كانت تعمل موظفة في جامعه «جندي سابور» لتتفحصها وكانت بوران تعرف قليلًا من أمور الطب ، فقالت بصوت أليم :
- ماتت العجوز!

الفنجان المقلوب

فاحت رائحة القهوة حين قلبت الفنجان ، زكية ، نقية ، قوية تذكر الواحد منا بأيام الخير واللحظات الجميلة.
اجتمعت النسوة حولها يتاهمسن ويتشاورن في ما بينهن ليعربن عن عدم ارتياحهن إزاء ظروف الحياة الصعبة. بدأت النسوة يجتزن حدود الصمت فبدأ الجو يحفل بصوت الهمسات حيث صار الكلام مرتفعًا اثر همهمتهن.
الكوبان من القهوة الطازجة بالوسط مطلان على الأحداق الباهته.

تربعت برجليها الصغيرتين رجل على رجل وحركت جسمها الممتلئ بهدوء ورخاوة نحو الكوب ، رفعت الصينية لتتنبأ ما ظهر من قطرات القهوة والطالع وحظ النسوة وهي تشعر بحكة شديدة في رقبتها الغائرة بين كتفيها وشعرها المنفوش في مقدمته ثم هيأت نفسها لتقرأ الرسوم اللاصقة على أسفله والنساء متربصات متربعات يحدقن في فمها ، يتأملن الخير والأمل والحظ السَّعيد.

:- (الحمدلله على سلامة بدريه اشسويتي لابنچ ؟)
تطرقت قارئة الفنجان نحو بدرية وهي ترسل نظراتها نحو الصينية والقهوة المسكوبة واجتماع النسوة يراقبها ويكاد يكون حب الاستطلاع يقفز من أعينهن.

أجابتها بتنهد وبرغبة لأنها لا تريد أن تصبح علكة في أفواه نسوة الشارع:

- (والله شَاگلچ بعدهواعلى حطة يدچ.. أگل له يماه! عوفها ماتفيدك... چا ياخذ حچي..يْگل لي..لا..لو هايه لوشوفي ش أسوي بروحي...)
استمرت وهي تبتسم فظهرت قوادم لسنانها. البعض منها متسوس والبعض الآخر شاغر مكانه.. وبحركة غير إرادية وكعادتها مسكت شيلتها بأطراف اصابعها لتضم ابتسامتها المصطنعة على فمها وتستمر بالكلام متوجهة نحو قارئة الفنجان.

:- (عيني بالله شوفي هذا الخطَّاب لبنتي اشلونه؟ حيرانين من الناس. ولله ماادري شَ أسوي)

و يختفي نصف كلامها الآخر في قرارة نفسها تتأمل لو انها تتنبأ بخبر مفرح تحمله لابنتها. قالت لها قارئة الفنجان وهي تسعل والبحة تغزو صوتها:
- (شوفي بدرية بنتج عدها اثنين خواطيب وانتم محتارين...الأوَّل گصير وعنده سيارة بيضا و واحد من حروف اسمه" ر"... والثاني هوما هاوي البنت بس الخاطر ابوه راضي ،شغلته هم حلوه بس الأم ماهي راضيه...)

اجابتها بدرية وهي تقترب منها وتشد على يدها بحرص وتجر جسمها نحوها وتقول لها بصوت خافت ومرتعش وحائر:

:- (هسا انتِ شتگولين ياهو الأحسن الأوّلي لو الثاني ؟)

تأملت قليلًا... وقلبت الكوب...ظهر التقطب على جبينها فحواجبها فردت بشيء من الفتور:
:-(بنظري الأول أحسن..اشوي تصير عدهم طلايب على الگي والمهر بس..تتعده)

لجأت بدرية إلى خيالها تتشاور في قرار نفسها وكفت النظر من ام گهوة تحكي مع نفسها ويظهر ذلك على ملامح وجهها مدّت يدها في جيب ثوبها الأخضر الداكن ولمست النقود واطمأنت ان بامكانها أن تقرأ طالعها ، لملمت جسمها النحيف وقالت لها بصوت خافض وهي متأمله:
:- (أريد تكشفي لي بلّا عيشتي اشلونها ما لونها...)

نظرت اليها ام گهوة ولا زال راسها منخفضا فبدا بياض عينيها مثيرا مرعبا تردد بخوف فتابعت بصمت ويداها متلطخه بقهوة حين سكبتها في الكوب وقالت باطمينان وهدو تام وهي لا زالت متربعة غير انها استبدلت رجلها اليمنى باليسرى وهي تداعب اصابع قدميها وشعرها الاشعث مشدود الى الورا حركت راسها الكبير واستمرت:

- تدرين خوهاذ ايكلف اهواي موميّة لو ميتين بلكت ايصير اربعميّة لو خمسميّة...

ارتبكت بدرية وشعرت وكانها بدات تتردد نظرت اليها وحب الاطمئنان على المستقبل يملا عينيها فقالت لها بصوت انثوي وكانها أول مرة تطرق باب العرافات :

-(يا خيّه شنهي چا وايد غالي.)

- (اشلون غالي انا كون اركز و تدرين وايد أتعب وايد ييي عليَّ ضغط ،راسي يظل يويع... لو تردين هم الفلفها الچ اتلفف بس انا ما اگدر هيچ اسوي... انا بگد فلوسچ احچي لچ..)

قالتها وهي تضع كوب القهوة في الصينية وكانها تنتظر الرد. بهزة رأس من بدرية ابتدت ب قلب الفنجان. اعترتها رعدة بداخلها وتسرب الخوف في جسمها وظل قلبها يخفق بقوة وكان يطرق باب ام گهوة شعرت بدوران خفيف في راسها وتدور في بالها تسائلات حول ملف حياتها في يد ام گهوة تترقب بلهف وعن كثب كم تمنت ان تتنبا لها العرافة باخبار سارة وتردد وكانها تقول لها انتظري...انتظري...

و فكرت إلى اي مدى يكون الشخص ضعيف وفي قمة خيبة الامل ويفقد ايمانه بالله وظلت تدور هذه الجملة في رأسها...

- (ا..شو هيا ام گهوه عيشتها بيد ربها ماتدري شيصير هسّا انا انطيها كومة فلوس شيگول علي ؟)

و كان صوت العرافة كالرصاصة اقتحم خيالها:
- (جدام لا تاخذين وايد چنتي مرتاحه)

دحرجت هذه العبارة وهي متكئة على ركبتها وتحرك الفنجان دحرجتها متعمدة لتحكي بدرية عن ماضيها وحياتها لتمسك ب خيط ما..حتى تخلطها باشكال الفنجان لكن كان ريق بدرية قد جفَّ فاصبحت شاردة الذهن تتطلع على ام گهوة في صحوة غريبة وتابعت كلامها في مزيج من رائحه القهوة ونشوة بدرية...

لمحت قارئة الفنجان لبدرية عن قائمة حروف لاسامي أشخاص تسببوا لها بالاذى وكسروا بخاطرها فيجب على بدرية تجنب هولاء الأشخاص وهزت رأسها ببطء شديد وقالت لها في حيرة اطلت مع خوف:

- (يا هي زهرا؟)
- (ليش؟ مرة حماي...)
- (ديري بالچ...ماني مرتاحه منها)
- (ليش شِ تْشوفين گِلّيلي فدوة...)
زادتها دهشة وحب الاستطلاع ولكن التركيز على الفنجان قد قطع حديثهما
:- (اشوفن شيء غريب... ما معلوم...)

و بعد صمت قصير سألت بدرية بلهجة حادة وهي تلوع:
- (أگل لِچ هم مُسوين لنا سحر؟)
:- (اشوف شي عجيب ... بس مرت حماچ ما هي خالية)
:- (اي بيت حماي عينهم علينا..انامتأكدة من شرة هذا الحوش لهسا تفتر علينا..)
أحست بدرية بدهشة طافحة تدفعها قوة الاستطلاع فتمنت أن تبوح لها قارئة الفنجان بكل شيء يهدد حياتها الزوجية في خيالها ونزاعاتهما...و تذكرت رائحة السمك الطازج على العربة من الطابق العلوي وزحمة السير الخانق للشارع

الرئيسي المنتهي لسوق كيان وصوت صخب الباعة للحصول على لقمه العيش وحكايات بائعات الخضرة وجدالهن مع الزبائن على باقي النقود وصوت صليل المواعين ورائحة البخور وضجيج الناس وصوت بكاء طفلة على لعبة كان دفء خيالها يتسرب في وجودها ما كانت تريد أن تستيقظ وخطر في بالها شكوك وتردد على ما تقول قارئة الفنجان وبالرغم من كل هذا لم تستطع بدرية أن تقف بوجه التعاسة التي تحوم حول حياتها البائسة وهي خائفة وخائبه الظن ولكن كيف تحصل على ما تريد؟

لا تزال تنتظر سماع أخبار سارة حين أفاقت بدرية ولا تزال قارئة الفنجان تتطلع فنجانها ،رمقتها بنظرة خاطفة وكأنها علمت بشكوك بدرية وسألتها لأنها كانت تظن ان هناك سرًا في الامر:

- (تردين أستمر؟.. شو اشوفچ ماتحچين!)

شعرت بدرية بقليل من الانفراج في قلبها وبرغبة قوية نسوية:

- (إي عيني! استمري! بس اريد اگل لِچ بالله شو احنَ كلشي ماكو خضَّه خضَّه و هو لبن)

ابتسمت ام گهوة بنظرة واحدة على الفنجان وقالت لها:

- انتي منتي مرتاحة ابيتكم!هاذ البيت ماطايح الكم

- ايى والله هاى انتى گلتيها..

و ترقبتها بلهف:

- (كون تْبدلون حوشكم ، شيلوا!)

جاءت هذه الكلمة وكانها كانت تنتظرها لتنطق بها من أول نبؤة. غمرتها الفرحة وراحت تختار بيت احلامها. قالت بدرية بنبرة اكثر جدية :

- (اگل لِچ بالله شوفي هم عدنا شيلة؟! هم انبدل بيتنا؟!)

اجابتها بدون رغبة وهي ملّت من اسئلة بدرية وحياتها التعسة فردت دون ان تنظر اليها:

-(يمتى ما ردتواتْشيلون لو بعد ردتوا تدورون على حوش هم تعاي اشوف فنجانچ)
اقتنعت بدرية ببساطة فاسندت خدها على يدها خائبة الظن لتعد نقودها في قرارة نفسها وكم عليها أن تدفع.

تذكرت طعم تمر «الگنطار» الذي يجلبه لهم أبو ماجد فاشتهته فوعدت نفسها أن تشتري كم كيلوا منه عند العودة من سوق عبدالحميد وتذكرت الامراة بائعه الدجاج والبيض التي كانت تجلس على الرصيف هناك ذات يوم.

و كيف ارسلت لها بنظراتها المقتنعة لكي تبتاع منها كم بيضة وشعرت بمرارة في ريقها حين تذكرت أكواب الشاي الزجاجية للبائع أمام المرآة تلك وإبريق القهوة يلمع بين أكوابه وطل عليها من عالم خيالها صورة لام گهوة وهي غاضبة.

تابعتها بدرية في وجوم وخوف مما تقراه من أفكارها. لم تعرف كيف تتصرف وقالت في بلاهة :

- (بالله ما تشوفين رزقنا اشلون ما لون ؟)
أحسَّت بشعورٍ غريب وتابعن جلستهن في صمت. تفاءلت بدرية سماع أخبار سارة ولكن ام گهوة دمتها بصراحتها فقالت:

- (شوفي هسا انتم ماشي حالكم بس بعد سنتين راح تتلوعون من وراها راح وضعكم يستعدل!)
:- (اشلون نتلوع سترك ربي عود شيصر!)

:- (چا مو گِلِتلِچ تشاركون بشغله.. و تستلفون غرض ، الخاطر هاي اگولتتأذّون)
:-(أوي من كون سودا عليك يا «صبيّح»هسا الا تشارك لابد تريد اتبع اسيييره)

وراحت تلعن وتسب من يسبب لها الأذى وتشاركها النظرات وآهات النساء الحاضرات وهنَّ يضمن رأيهن لرأيها. ردَّت والقلق يسيطر عليها:
-(والبيت ؟!)
:- (خو گِلِتلِچ انتِ مِنْتِ مرتاحه بيهْ و ضيمكم و مشاكلكم منه... لازم تبدلون البيت)

غرقت في أفكارها وشعرت بأن العالم ازداد سوادًا بعينيها فراحت تتذمر وتتأوه تهمس مع نفسها وتلقي نظرة خاطفة سريعة على تلك وتلك من الحاضرات خشية الشماتة وهي تقول :
:- (هو انتِ من أين تدرين بلكت الله قاسمنا شي ثاني چا هيَّ گوتره نبيع الحوش اصلًا هو «صبيّح» يرضى يبيع!)

:-(شَ اگلكيا«صبيّح» يا من كون دهر اللفاك من يوم يبتنا و حطيتنا يم اخوك)

و استمرت وهي تراقب:
:-(لابد عدها اجنون شي مسلطا عليهن ماهي خالية)

و تسرب الخوف في جلدها وشعرت بالتعب ثقل كاهليها وان شيئًا ما من الخلف ينظر اليها ومن الموكد ان احد اخر جالس معها يترقبها ، بتاكيد هوا الجن يقرا لها أفكارها فرجفت وانكمش قلبها خوفا فشعرت باختناق وأصبح الجو ثقيلًا ولم يعد بوسعها الاستمرار أكثر من هذا ولما أفاقت لمحت نظرات غريبة ترسلها اليها أم گهوة فتمتمت بكلمات مسرعة:

:- (يلا عيني من اجازتچ)
و التفتت نحو النسوة فقالت واحمرار وجهها هو الغالب على السمرة :
-(سامحني حبايب عطلتچن!)

اخرجت يدها اليمنى من ثوبها فكومت بضعة نقود تحت الصينية باكراه فقامت متأوهة عن عدم الرضا وايقاع حركة بطيئة تدل على ذلك فقالت بهمس:

- (يالله في أمان الله!)
- (هلا بيچ!)

قالتها قارئة الفنجان ببرودة ثم تابعت عملها.

خرجت وهي تتعثر بعبائتها الملفوفة حول جسمها النحيف فجأة أصابها صداع شديد جعلها لم تستوعب ما قالته قارئة الفنجان وتفاصيلها.

كان «صبيّح» ينتظرها خارجًا في سيارته وهو يمشط أصابعه في شعره وأحيانًا يلقي نظرة على الشارع عبر المرآة الأمامية وحين خرجت كانت الشمس قد غابت وبدا حفيف الطيور في شجره الصفصاف المجاوره يجتاح الصمت والظلام يفرش غطأوه على السماء. فلما وصلت قال بلهف وشوق قد ملأ عينيه:
- (ها بشري؟)

-(شنهي بشري؟... موش أگل لك.. مسوين سحر.. وعينهم ورانا... خذت الفلوس كلها..بس كلشي گالت.. بس ما تعرف للسحر... كون نْدوِّر على إلّي يعرف للسحوره... السالفه واید کلفه!)

المفترق

سرعان ما اصطفّ طابور طويل من السيارات وبضعة دراجات نارية خلف الإشارة الحمراء.

جاء يهرول من بعيد وبيده ممسحة وبخّاخ ماء صغير.
بخَّ كمية قليلة من الماء على الزجاجة الأمامية لسيارتي فراح يمسحها حتى أصبحت شفافة ذات لمعان.
فعل ذلك مرة أخرى.

كنت اطالعه خلسة كي لايراني مع أنه لم يكن يهتم بنظراتي أساسًا.

إنتابني شعور غريب في داخلي...
شعور الاستياء ازاء تقلبات الدهر ومأساويه.

من مسرحية الزمن وكيف أصبح هذا الرجل دمية عبثت به يد القدر الغادر وحظه المتعثر و...

تأملت الموقف المؤلم الكريه وتمنيت لو انني كان باستطاعتي مساعدته...
تأملت في ملامح وجهه المتهالكة...
وهيئته الرثة التي غابت عنها الحياة.
كانت تفوح من أعماقه رائحة البؤس...
كانت يداه ذا قبضة قوية تمسك زمام أموره مع أن بشرتها باهته ضعيفة دون فائدة وعيناه فقدتا بريقهما اللذان كانا يمدان حياته بالتفائل والطاقة.
حياة رمادية اللون دون عواطف واحساس فهو الذي قد فقد الحياء والعفاف اللذين كانا يستران أبسط أموره.
خمدت لديه بهجة الفرح التي كانت تغمر روحه ربما...

فلعله لا يتذكر اسمه ومن الممكن انه فقد ذاكرته فأصبح شبه انسان بل حطام رجل يائس أو ربما صورة مقلوبة رأسا على عقب بكل تفاصيلها.

طار بي خيالي فتبصرت في مستقبله المظلم ، مستقبل بلا معالم واضحة... ضبابي بلا رؤيا. تأملت ماضيه حين كان في الجامعة ، حين كان ناشطًا بمعنى الكلمة يكتب منشورات ثقافية توعوية اجتماعية ، لكن بعد تخرجه من الجامعة حاول أن يحصل على وظيفة لكنه فشل بعدما حاول وخاض تجارب ما أدّى ذلك إلى انزوائه من المجتمع البغيض واللجوء إلى الادمان... فذهب ماضيه الجميل... بكل بساطة... قُضي على مستقبله فجأة فنسي من كان وكيف كان يعيش ملتهف الرؤية.

ما إن التفت نحوي التفاتة غير ارادية حتى أدرت رأسي نحو الواجهة الأخرى تفاديًا للموقف الحرج ولكنه التفت الي مرة اخرى باسطا كفه مطالبا بالدفع له.

في تلك الثواني الحرجة تدخلت التكنولوجيا لتنقذ أحدًا منا لكن لا أعلم تدخلت لانقاذي أم لانقاذه....؟

الاشارة الخضراء سمحت لطابور السيارات أن يتحرك فدفعنا سيل السيارات المتدافع...

بقى متجمدًا عيناه تتابعان السيل المتدفق للسيارات...
راح يهرول نحو الواجهة المقابلة للمفترق....

يوميات شارع 14

(١)

مع تقدم الظل واجتياحه عرض شارع ١٤ رويدًا رويدًا وهبوب النسيم المنعش في أحد أيام الصيف هرع أطفال الجيران إلى الشارع كي يلعبوا الغميضة أو كرة القدم كالمعتاد ، خرج سيد فرحان من بيته حين سمع صوت الأطفال يصرخون ويركضون بشغف في الظلال الصيف ليطاردوا أحلامهم التي تحلق في الهواء وتتلاشى فجأة مع صرخاتهم حين يمررون الكرة لبعضهم البعض أو عندما تصطدم رؤوسهم عند زاوية في عتبة المرمى التي تشكل " سدرة السيد قاسم" أحد عموديها.

حان الموعد ليجلس امام باب منزله ليشغل نفسه فيترقب عن كثب ما يجري في شارع١٤ فتتسلق نظراته أحيانا فضاء السماء الواسع من فوق الحي.

وقف على عتبة الباب الرمادي الكبير وقفة من يبحث عن ينبوعٍ يروي عطشه مرتديًا دشداشته البنية التي كويت على يدي ابنته والكوفية ذات النقوش السودالمتقاطعة.

بصوته الأجش نادى زوجته لتجهز الأرقيل وتجلبها له وتجلس معه وينتظرا من ياتي من الجيران ليجلس معهما ليقضوا وقتا بدا لهما ملل غير مريح.
كانا قد إعتادا على هذه الظاهرة فهي الآن أصبحت هوايتهما منذ سنين كما اصبحت هواية الكثير من الاهوازيين.
امسكت الأرقيلة بخطى متثاقلة ويداها النحيفتان موشمتان بالحنة العربية. الكفان والاصابع معا ،الحنة لم تفارق يديها ولا شعرها الذي يظهراحيانا من تحت"شيلتها" وهذا ايضا ما اعتادت عليه. لم يرها يوما احد دون شيلة وكانها ظلها الذي لا يفارقها الا عند ما تخلد الى النوم وتلقي بنفسها في احضان احلامها التي تتباعد عنها يوما بعد يوم!

جاءت وهي تمضغ علكة اللُّبان التي تحتفظ بكمية منها في جيب فستانها الازرق الداكن الفضفاض دائمًا فهو يموج مع مشيتها كحزمة من البردي عند هبوب النسيم.

نادت بنتها لتأتي بابريق من الماء وهي تخرج من الممر المظلم المنتهي الى الباب حتى جلست جنب زوجها فرحان وهما يراقبان الأولاد بعينين فاحصتين. سمع الاطفال صوت الارقيلة برائحة المعسل فجذبهم الصوت والرائحة الزكية. أوقفوا اللعب للحظات. امسك كبيرهم بالكرة واضعا اياها تحت ابطه. اقتربوا رويدًا رويدًا من السيد فرحان وزوجته والتطفل باد على وجوههم وكأنهم أرادوا المشاركة من مع سيسحب دخانها.

لم يعرهم السيد فرحان انتباها فاستمر في جذب النفس من الدخان... يئس الأولاد من برودة الاستقبال فتراجعوا من مكانهم ليعودوا إلى اللعب. واصل نظراته الدافئة نحو زوجته التي تجلس بالقرب منه بعد ما جال بهما جولة اظهر عدم اعجابه بما يدور حوله.حل السكوت بينهما وهي تلوك اللبان وتتابع السيد فرحان بنظرتها الحنونة والبسمة تعلو شفتيها كما يعلو فرق شعرها من على الهامة أحيانًا.

كانت تعتني ببعض مقومات الاناقة عند النساء التراثيات في الاهواز! كانت تهتم بالحنة وتستعملها دائمًا حيث تطلب غالبا من احدى بناتها أو كنتها ان تصنع لها الحنة الممزوجة بالغرنفل فتضعها على شعرها الرمادي ويديها مع حلول المساء فهي لاتحب ان يكون شعرها فاتح اللون بل كان الرمادى لون محبب لها.

كانت تستعمل الديرم لتبييض أسنانها والعطر العربي الذي تفوح منه أريج التراث الذي يخشى الكثير ليه من ان يدفن في طي النسيان.

طلب منها بصوت أجش أن تسكب له كوبًا من الماء عندها جاءت أم ميثم وهي تجر بنعليها فشاركتهم:

- (مساكم الله بالخير)

- (مساچ الله بالخير)

بعد قليل ازداد العدد بمجيء الجار قاسم وزوجته وأم مُحَمَّد وبنتي السيد فرحان نفسه والبهجة تعلو وجوه الجميع.

كان بيتنا يبعد عشرات الأمتار من بيت السيد فرحان كنت دائمًا أتمنى أنْ تجلس أُمِّي لتشاركهم كي اتمكن أنا من الحضور لكنها كانت ترفض ،كنت أنظر اليهم بشغف ومن عتبة بابنا الصغير ،كان السيد فرحان بمثابة الملك للشارع وكنت أكن لهم احترامًا كثيرًا كما كان يحظى باحترام عند كل الجيران.

لم اتجرأ يومًا ما أن اقاطع أوأرفض كلامهم وكان أمرهم لي مقضيًا حتميًا وبنتهم كانت محترمة أميرة بامتياز.

حان وقت جلوسهم وكانوا يتحدثون حول الجيران والأولاد الذين يتراكضون في الشارع فيحدثون ضجيجًا مزعجًا أو عندما يركلون القمامة فيبعثرونها في وسط الشارع يحاولون أن يشكوا ذلك إلى أهاليهم ليضعوا حدًا لذلك الأمر.

كانوا يتحدثون عن رواتب التقاعد المبكر والاستحقاقات المالية التي يتأملون ان يحصلوا عليها بعد ما وعدتهم الدولة بدفعها لكنه كان مجرد كلام ولم تدفع الدولة ما عليه أو كان الحديث ينتهي احيانا بالقاء اللوم والعتب على كل لم يحضر معه من الجيران ولم يشاركهم في الحديث والسمر ، وكان حديثهم يحلو دائمًا باكواب الشاي التي تحضر بطريقة جيدة على يد بنت السيد فرحان وكانت الجلسات النقاشية تنتهي عادة ما بصوت أذان المغرب الذي يتهافت عليهم من مسجد الحي فيدعوا إلى ذكر الخالق الاجل.

***

(٢)

إنه الصيف مرسومة ذكرياته الجميلة في ذهني وكم الأحداث والمفاجات التي تمخضت في شارع ١٤ تعزز تلك الذكريات.

كان للصيف مذاقه الخاص آنذاك على الرغم من ذلك كانت هواياتنا بسيطة جدًا ولكن ممتعة إلى حدٍ ما. كنا أطفالًا نلعب في الشارع شتى أنواع الألعاب ،

من الرسم على الحيطان الإسمنتية للجيران إلى المطاردة واللعب في مجموعات مع أقراننا.
كنا نخطط ليوم غد عن ماذا نلعب وماذا نفعل إلى أن يخيم الظلام على بيوتنا المتواضعة. كنا نلعب الغميضة بعد العشاء. وكان بعض الأولاد من أقاربنا يقضون عطلتهم الصيفية عندنا.
كان بعض الأولاد يقضون عطلتهم الصيفية بتعلم مهنة عند البقالة أو نجَّار أو في ورشة مكانيكي وعلى هذا المنوال كانوا يكتسبون الخبرة وفي نفس الوقت يجمعون بعض المال لشراء ملابس المدرسة للسنة الجديدة حيث كان هذا الأمر يوفر المصاريف للعائلة.
مع حلول العصر وقبل أن تُعقد جلسة السيد فرحان مع الجيران في وقتٍ تكاد فيه الشمسُ أن تغيب ويصبح لونها ذهبي فاتِح ويصفر على لوحة السماء الأرجوانية مع تغريدة عصافير المساء وكأنهن يعلن موعد الأذان.

حينذاك كان أولاد الجيران قد خرجوا من منازلهم وهم ينتظرون أصدقائهم كي يلعبوا معًا والبنات معًا فان خرَجتَ والقيت نظرة تجد الشارع مزدحمًا تعلو به غوغاؤهم وضحكاتهم إلى عنان السماء وتأتي الأهالي دون أن يكترثوا لهم ،كانوا يلعبون إلى أن يستولي عليهم التعب ، كنا أنا وصديقاتي نجتمع عند الرصيف أو بالقرب من منزلنا أو بيت السيد فرحان ، أحيانًا كان السيد فرحان وزوجته يشاركاننا برأيهما أو مدح إحدانا أو تذكير قانون للعبة المصقلة (٢) (الصگلا) عندها كانت زوجة السيد فرحان تروي لنا وهي مسترخية بجسمها الممتلئ على عتبة بابهم وهي تمضغ علكتها اللبان وتروي لنا ايام زمان.

عن احترافها في اللعبة تلك عند ما كانت طفلة أوكيف كانت تلعب مع صديقاتها ثم يشاركنا السيد فرحان بنظراته المحفزة وعندها يرسم ابتسامةً عريضةً على

(٢) لعبة قديمة تلعبها البنات بالأحجار الصغيرة

وجهه كنت أتصور كيف كان شكلها وهي صغيره وكنت اتساءل هل كانت تلبس الشيلة والچلاب الأزرق حينها يتلاشى تفكيري مع صوت صرخة احدى البنات لإستمرار اللعب ،
فريقنا كان يتشكل من كبرى بنات جارنا وبنت السيد فرحان وليلى بنت عم كبرى وعالية ، المحترفة بيننا كانت هي كبرى فهي تلعب بحرفيةٍ وإطمئنان وكنا ننتظر طويلًا حتى يأتي دورنا لأنها لا تخسر بسهولة.

كنت أتابعها حتى أتقن حيلتها فكان ذلك ممتعًا ،حيث كنا نختار الحجارة من حافة الشارع أومن على ضفة النهر أومن الساحة الخارجية لبيت سيد مهدوي ، الذي كان يشرف على الشارع بمبناه المرتفع من قمة الشارع وكان هو أعلى البيوت في شارع ١٤.

كنا نجمع الحجارة المستديرة ثم نقوم بغسلها فننتظر إلى أن تجف ومن ثم نبدأ اللعب.
انا كنت متحمسة لهن كثيرًا وكنت انظر بدّقةٍ حتى اختارالحجر(الصلبوخ) المناسب حيث كان يجب أن يكون متوسط الحجم ليس صغيرًا ولا كبيرًا وطبعًا لونه كان مهمًا بالنسبة لي ، أمشي رويدًا رويدًا وعلى أقل من مهلي فوق كومةٍ من التراب الذي يقع أمام بيت سيد مهدوي الثاني الذي كان في طور الإنشاء فأجده مليئًا بالحجارة المستديرة تلك.

كان السيد مهدوي رجلٌ أعجمي وكان يعملُ موظفًا في البنك ، كنت اخافه كثيرًا وأتجنبه منذ أن طرد زوجته من البيت ، كان الجيران يعتقدون بانه مختلٌ عقليًا أو فقد عقله. كان قصير القامة أصلعًاقليل الشعر ذا رأس صغير الحجم وحاجبين معقدين ولحية رمادية لا يبشر شكله بالخير وكان عبوسًا دائمًا كأنه لم يبتسم في حياته قطُ وكان لا يطيق أطفال شارع ١٤. كنت أتمنى أن أدخل بيتهم لأن بيتهم

كان وسيعًا جدا ومبنيٌ على الطراز الجديد ومع ذلك لم يدخله احدٌ من سكنة الشارع فهو كان نائيًا كبيوت العفاريت.

هو لم يكن على ارتباط مع الجيران ويالللأسف على ابناءه الثلاث حيث كانوا يجلسون أمام البيت ينظرون إلينا بحسرة ، كيف نلعب ونضحك ونركض مع هبة رياح الصيف الحارّة ؛ حيث نصطدم مع بعضنا وصرخاتنا تلتقي عند بابهم وتذوب في قلوبهم الحسرة وتدفن آمالهم عند عتبة باب منزلهم العالي خوفا من ابيهم. كان من يمر من امام بيتهم ينكمش وجهه لذلك كنا نتجنب المرور من هناك.
حين كنت على كومة التراب تلك كانني أسمع همس الحجارة وبريقها أوكأنني اسمعها تناديني بالتماس وتقول:

- انا!... اختاريني انا!.

كنت انحني لأخذها ولكن بعد ذلك أغير رأيي فأختار الأخرى وحين اجمع الحجارة اخبأها من أبي الذي كان يرفض أن نلعب المصقلة لإنه يعتقد أنها تجلبُ سوء الحظ ونحسةٌ (كقصة الأرنب) كنت اخالفه الرأي وانا كنت أستمتع بصوت ضرب الحجارة تلك ببعضها والتقطها في الهواء عندما امسك بحجرٍ والتقط الآخر من الأرض دون أن أنظر اليه عندها ينتابني حسُ الاحتراف والكِبرياء.
كنا أنا وبناتُ جيراننا نجتمع بشكل دائري وكانت لدينا قوانينٌ خاصةٌ بنا ،الخاسرة تنسحب والدور يصل الى الأخرى أما بالنسبة للأولاد ، فهم كانوا يحبون المطاردة وكرة القدم اكثر من غيرها لان لعبة الصقلا تعتبر لعبة انثوية.
في بعض الأوقات كنا نجتمع معا ينتابنا إحساس الطفولة البريئة ونلعب معًا في فِرَقٍ وبحُماسٍ عال.

و أما بالنسبة للعبة التي كنا نلعبها معا كانت هي لعبة المحيبس وكانت هذه اللعبة تجمع البنات مع الأولاد فانها اللعبة المفضلة والممتعة ، حيث كنا نجلس على شكل طابورين متوازيين من كل فرقة ، تختار الفرقة المحترف من فريقها الخاص من الأولاد والبنات ، ونجلس واحدًا امام الآخر ومن ثم بسبب شقاوة البعض منا والغوغاء وضجة الآخرين ينكسر النظم وبعد دقائق يرجع الهدوء للفرق وبالطبع الاقوى كان يتولى قيادة اللعبة وادارتها وكان هو الذي يقرر أن الخاتم أو المحيبس يكون عند مَن مِن اللاعبين.

كنا نختار حجرًا صغيرًا أوغشة أوورقة لنخفيها بين ايدينا فهناك كان من يغش في اللعبة حيث يوضع اكثر من خاتم بايدي اكثر من عضوٍ من الفريق المقابل وذلك كان كفيلا لحدوث صراع آخر ومطاردة بعضنا البعض في الشارع واحداث شغب لاضحاك المتفرجين.
كنا نتسلى بتلك اللعبة غارقين في ألاحلام ليوم غدٍ أو بعد يوم غدً كالعاده ونطارد ونحلق احلامنا على النسيم المنعش تحت السماء الزرقاء الممتددة على الشارع مع خطوط الغيوم البيضاء الرفيعة وكأنها ممدودةٌ ومرسومةٌ على السماء بيد رسامٍ محترف ، وفجأة صوت صرخة ادهشت واكمشت الحُلم الجميل من فوق رأسي.

التفت لارى ما القضية. نظرت الى عتبة الباب للسيد فرحان ،فرأيت وجهه مسودًا من شدة الحزن يلتقط انفاسه بصعوبة ، وهو متكئٌ على الباب خرجت إبنته وهي تبكي ومن ثم إبنته الاخرى خرجت وهي تصرخ أيضًا.
***
(٣)
تفاجأت وأنا مرعوبة حيث تجمدت وسط الشارع لا استطيع الحراك. شعرت كأن عقلي قد فر مني. راح فكري يرسم عشرات السيناريوهات التي من الممكن أن تحدث في تلك اللحظة. حلق بي الخيال الى أبعد مدى ممكن وقد شعرت ان

الشارع الاسفلتي يجرني إلى دوامة تبعدني أميالًا من بيتهم ويمحو من ذاكرتي صور الأشياء والجيران وصديقاتي.

كنت حينها قد تسرب فيَّ الشعور بالوحدة وكأنما أحد يمسك بخناقي لكن بعد لحظات هدأت دقات قلبي وبدا عقلي يستعيد قواه بعد ان انهدت تلك القوى.
إزدحام المارة والضجيج الصاخب الذي أحدثه الجيران كل هذا جعلني أفيق من تلك الحالة ، كان الكل يهرول نحو بيتهم كل شيء يحدث أمامي كلمح البصر ، من كان بمقدوره وصل هناك ومن لم يستطع زحفت عيناه تتطلع المشهد قبل قدميه. كان الكل يحمل على ملامحه علامة استفهام.
فهم مندهشون لما حدث يتسائلون عمَّاجرى. اختلط الصراخ والضجيج بصخب الجيران وصيحات المارة من الناس.

ازدادت موجات الصياح المشحونة بالعويل ، فجاة خرج من بوابة البيت الابن الاكبر للعائلة هو يرتعد ويصرخ غضبًا لا أعلم ما ذا كان يقول. كانت الكلمات تتقافز من على شفتيه دون ما انقطاع وهو يضرب على رأسه بيدين مرتعشتين دون وعي كانه مجنون فقد عقله من سالف الزمان.

بعد لحظات أخذ محمود يذرع الشارع إيابًا وذهابًا لاطمًا على هامته والكلمات اللامفهومة تتقافز من على شفتيه المرتعشتين
هناك خرجت زوجته ذات الوجه الأبيض المستدير وقد اصفر وجهها خوفًا وذعرًا ، ك«الچلّاب» الذي كانت تتماوج صفرته من على شيلتها وشعرها المبعثر.

خرجت «مَنوه» تحمل ابنها بيديها المرتعشتين والدموع تتساقط فتدر على وجنتيها. تفاجأت حين رأت عشرات العيون المتسائلة بفضول عن زوجها وعن ما يحدث في بيتهم.

كانت دقات قلبها أسرع من لسانها لتطلب النجدة من المتجمهرين أمام بيتهم لينقذوا ابنها الذي تحمله باحضانها وتضمه على صدرها ضمنًا.

في تلك اللحظة تذكرت يوم زفافها حين ودعت أمها... حين ودعت تنورها الطيني المبني في زاوية من البيت وأريج زهور حديقتهم الجميلة. الزهور التى كانت تنمو في أحضان الطبيعة. ذكرت ماكانت تقول لها أمها وهي تضغط على يديها:

-(يما ابن خالچ وبديره وهما عينهم عليچ.)
أفاقت من سباتها حين سمعت صراخ زوجها محمود.

كان يصرخ بوجه ابيه أمام الجيران ويلقي اللوم على أمه وأخواته المسكينات الاتي كن ينحبن ويبكين دون انقطاع.
تقدم السيد قاسم فامسك بالطفل ونأى به إلى الجانب الاخر من الشارع ثم تقدمت بعض النساء المتواجدات هناك فاخذن بيد منوه وادخلنها في البيت بعد ما اظهرت شيئًا من المقاومة اليائسة.
أبي أيضًا انتهز الفرصة فأخذ يحتضن السيد فرحان ويجلسه على عتبة الباب وطلب باحضار كوبا من الماء لعله بذالك الكوب يهدء الوضع القاتم هذا. لا اعلم كيف ومتى في هذه الضجة الصاحبة ركنت سيارة الأجرة وادخلوا الطفل فيها كي ينقلوه إلى اقرب مستشفى بالمدينة.

خرجت أم سعيد من بيتها لتروي عطش الجيران حول معرفة حقيقة ما حصل فهم لا يستوعبون ماذا حصل لعائلة السيد فرحان. كخبيرة روت لهم ما حدث بالتفصيل.أخبرتهم عن الطفل وعن حساسيته بالباقلاء وحتى وصل الأمر بها ان اضافت من نفسها تعليقًا فقالت :

:- (يا خيه ما أدري اشمالهم هذول... هُمَّ يدرون ابنهم ماتوالمه الباجلة ، چا ليش ينطونه باجلة ؟ يا اشمالها الناس ؟)

ثم استطردت فقالت:

- (هاي مو أوَّل مرة... هاي ثاني مرة الوليد ايصير بيه هيچ... خو لو تشتهون باجلة ليش تنطون الياهل هذا ؟ تردون اتموتونه ؟)

بعد لحظات تفرق الناس وهم يتسائلون مستنكرين ما حدث للطفل والسؤال يلوح في أذهانهم :
:- (شنهو ذنب الياهل ؟)

في صباح اليوم الثاني ومع اشراقة شمس جديدة توقفت سيارة الاجرة عند باب البيت حيث كان السيد فرحان كعادته يحتضن الارجيلة ويشهق منها انفاسا لعلها تطيب خاطره. تفاجأ حين فتح بابها فاذا بابنه محمود وزوجته منوه ينزلان من السيارة والحفيد في احضان أمه.

هبَّ من مكانه فرحا فأراد ان يتقدم ويحتضن حفيده لكن استل الطفل نفسه من بين يدي امه فرمى نفسه بين احضان جده فدار هناك تقبيل وعناق حار بين الحفيد وجده ما جلب استغراب الجميع.

لكن امارة الغضب وعم الارتياح مازالت السمة البارزة في تقاسيم وجه محمود فهو مازال على ما اتخذه من قرار فأكد على هذا القرار حين دخل البيت بعد ما قال بصوت متألم :

- (ما النه مكان هنا... كون نمشي منا)

نفّذ ما قرره محمود فسرعان ما انتقل وعائلته الى حيث اراد. انتشر الخبر بسرعة انتشار النار في الهشيم ولما سمعت خبر عودتهم شعرت بحزن مؤلم لانني لم اكن استطيع ان اتصور خلو بيت السيد فرحان من ابنه واسرته فهو كان لهم مصدر سعادة وارتياح.

حزن الجميع لرحيل عائلة محمود لكن الأكثر حزنا هو السيد فرحان نفسه حيث لم يعد يبتسم تلك الابتسامة الجميلة التي كانت تزهو على وجهه دائمًا.

بدأ السيد فرحان يشعر بالوحدة المقيته المؤلمة. انه يشعر بالفراق الذي حدث بعد رحيل ابنه الأكبر الذي كان يملا الدنيا عليه.

كيف يستطيع ان يملأ المكان الذي كان يملاه ابنه ؟
كيف ينسى حفيده ؟ كيف ينسى ضحكاته وحركاته الشقية ؟
ماذا يفعل إن حل لهم مكروه ؟ بمن يستنجد اذا طرأ عليهم طارئ ؟

طلب كعادته الارجيلة فسرعان ما جاءت بها العجوز. اخذ ينظر الى الارجيلة وكانه يناجيها لعلها تسمع ما يقول وتدرك ما يشكو منه. راح يغوص في افكاره وخياله البعيد وهو يسحب دخان الارجيلة الابيض الذي اخذ يتطاير الى الاعالي متطلعا الى الافق لعله يجد حلًا لهذه المشاكل التي نزلت عليه فجأة.

بيتنا العتيق

فحبيبتك يا ولدي...
هكذا إرتفع صوت أغنية قارئة الفنجان من المسجل العتيق واخترق صمت الجدران المتواضعة لغرفة «چاسب».

كل صباح حين يستيقظ«چاسب» من النوم، يشغل المسجلة ثم يذهب للمطبخ ويمسك كوبا من الشاي ويرجع الى غرفته متماشيا مع رنّات موسيقى الأغنيه ليس مهتما بما يحدث خارج الغرفة.

بيتنا كباقي البيوت في الشارع مبني على الطراز القديم، يتألف البيت من قسمين متقابلتين. مابين القسمين يقع " الحوش" وهو ساحة كبيرة مرصوفة بموزاييك رمادي ذات النقوش البيضاء والسوداء، كلمارشته امي بالماء مساء تذمرت من لونه واشتكت لنفسها وهي تخلق قصة غريبة عن الموزاييك الرمادي هذا تثير غضب أبي...
تجدها تتضايق كثيرا حين تحني ظهرها وتغسل التراب وتكنس لتنظف الحوش العتيق لكن لاتجد في ذلك اي فائدة.. فابي لا يكترث لمضايقتها من الموزاييك الرمادي.
أنا أيضا لا اكترث للونه بلعكس اجده فريداً من نوعه وطوال هذه السنين اصبح بالنسبة لي جزءا لاينفك من هوية بيتنا العتيق.

توجد في القسم الخلفي للمنزل ثلاث غرف، غرفة الاستقبال أو الديوانية المفروشة بالسجاد وقد زينت جدرانها بالصور وتقع العين فيها هنا وهناك على التماثيل أو باقة من الزهور المصنوعة بيد اختي الكبيرة، ثم تليها غرفة امي أو غرفة الأغراض وبها الدواليب المليئة بالملابس والمواعين، والمنضدة المتخمة بالبطانيات واللحف والابسطه التي حينذاك تجد كل إمرأة تهتم لامتلاكها وزاد فخرها كلّما كانت متنوعة ؛ كان السجاد العربي المزين بنقوش الجمال وخريطة الطرق ملفوف تحت كل الاغراض.

كان ابي كل سنه في عيد الفطر وبشق الانفس يجرها ليزين المضيف العربي لاستقبال ضيوف العيد.
يقع المطبخ بالجانب الشمالي لغرفة الأغراض وفي وجهية الدور الخلفية تقع الطارمة مطلة ومشرفة على الحوش ، ذهب الطلاء عن جدرانها وبقيت الحجارة صفراء بارزة كشجرة عريانة فقدت أوراقها في الخريف ، الطارمة تحمي هذه الدور من اشعة الشمس الصيفية ، مرتفعة مع الدور الخلفية على باقي مكونات البيت ، الطارمة مضيف للعائلة غالبا في الضحى أو العصر تجدها مفروشة بالبساط تستقبل سوالف وحكايات جدي حين يقدم له الشاي الممزوج بالهيل والنبات ، يتسمر كل واحد منا لسماع كلماته عن بطولاته في ايام شبابه.

يتألف القسم الأمامي المشرف على الشارع من غرفتين متتاليتين ثم الباب العتيق الصغير مع الممر المسقوف الضيق يليه الحمام وفوقه السلم الموزاييكي.

غرفة «چاسب» تقع في زاوية الدور الامامي ، حيث فيها مكتبات على الجدران مرصوصة بكتب متنوعة وعلى الجدران هنا وهناك لوحات فنية معلقة وتماثيل وصور لفلاسفة ومنضدة حديدية صنعت بطلب من «چاسب»على يد لحام من اصدقاء ابي وحواليها كراسي والمسجلة العتيقة.
الغرفة المجاوره لغرفة «چاسب»غرفة صغيرة تلم جميع أغراض أبي ومستلزمات البيت واثاث لن تؤمن بلملمتهن أمّي ، وجودهن غالبًا يثير جدلًا بينها وبين أبي هذه الغرفه الصغيرة مرشحة للتخريب مع الباب الصغير لتكوين باب كبير لعبور سيارة أبّي التي سحل بيننا في المستقبل القريب.

تقع الحديقة جنب الحائط الاسمنتي لبيت جارنا السيد مهدوي في الجهة الشمالية لساحة المنزل ، والحديقة ليست كاي حديقة اخرى فهي تتزين بنخلة باسقة مرفوعة اسعافها إلى السماء يعجز اللسان عن وصف هيبتها ، فهي هناك

كالأنثى واقفة على جذورها مثابرة تتحدى شجرة التوت والجدران بجنبها ، النخلة تراقب ما يحدث في الحوش عن كثب وكان ظلال اسعافها حاضر بيننا حين نلعب المسطاح أو الغميضه ، كانها تحضننا فتحفظنا من اشعاعات الشمس الحارقة ، لقد اصبحت كأم ثانية للبيت ، رعايتها تتطلب عناية بدقه ، فأبي يهتم بها كباقي أفراد أسرته ، كل سنة في الربيع يشد الحابول على حزامه ويتسلقها من أجل تلقيحها ومن أجل أن

تثمر لا أحد يسقي الحديقة ولن يهزها ويجب أن لا يمسها لا بارد ولا حار ، فهي ثمينة يحافظ عليها أبي كلؤلؤة ، فنحن بفارق الصبر ننتظر نضج ثمرها ، إلى ذلك الحين يفزع أبي كلما سمع زقزقة العصافير على أسعافها التي تاكل وتنثر اللقوح وكنت أراه كم كان حريصًا عليها حتى تثمر...

كل صباح قبل تلألؤ أشعة الشمس على نافذة الغرفة كانت زقزقة العصافير توقظني وكنت استمتع لهذه السمفونية قبل أن أفتح عيني لبدء يوم جديد.

قبل انضمامي لمائدة الفطور كنت أجلس على الدرج لأشاهد العصافير في الحديقة كيف تاتي وتحط وتطير وتشاجر بعضها بعضا على الأشجار وكيف تزقزق ببديع أصواتها الحانًا جميلًا تحيي الفضاء وتحيطني من كل جانب.

كنت أغمض عيني مرة أخرى على السلم حتى أستمتع أكثر لصوتها الجميل وكنت أشعر بسعادة عارمة واذا ما كان صوت أمِّي من على المائدة في الطارمة لخلدت إلى النوم مرة أخرى.

:- (تعالي ولچ..اغسلي ويهچ ، شوفوا! خذاها النوم على الدري. لاطيحين يما!)

كان السلم الموزاييكي مشرف على الحديقة يربط سماء أحلامي بالساحة الموزاييكية الرمادية لبيتنا العتيق. حينما أحس احساسًا غريبًا قد تراني جالسة على قمة السلم ، أشاهد أسطح البيوت المجاورة كيف تختلف عن بعضها فأكثر الأسطح مصبوبة بمزيج من الطين والتبن خوفًا من تسرب المياه ، كنت أشاهد الورود المزدهرة على هذه الأسطح كيف تداعبها الرياح العاتية ، لاصوت ولا زعيق. قد تلمح العين كومة أثاث قد تركها الناس بلا استفادة فوق الأسطح.

فجأة ترمقني نظرة من دائمي الجلوس أمام عتبة البيوت أونفر من الماشية على الرصيف وحين ذاك أضم رأسي بين يداي العاريتين خوف من الحكايات التي طالما أخافنا أهلنا وامهاتنا وأخواتنا من تسربها في الشارع علي نزاهة الأناث.
و اذ الواحدة منهن ارتكبت خطاء ما ، تقيم القيامة الكبرى فالشارع لاينتظر حتى الأناث تثبت برائتهن بل الحكاية تنتقل من بيت إلى بيت وحتى يعلق كل شخص وجهات نظره ويضيف عليها كلمات حتى تصبح القصة مختلفة تماما عن الواقع.! ولكن انا قد اعتدت جلوسي خلسة على قمة السلم وأفرح حين أشاهد اعمدة الكهرباء الخشبية وسرب من الدجاج وتكاكي أمراة «مش حسن»و«سلمان البائع» المتوسط القامة وكثيف الشعر كيف يجر عربته من أوَّل الشارع يصيح بصوته الأجش والقوي:
- (تفاح....تفاح...تفاح أحمر يابا.)

تفزع اليه كالعادة جارتنا أمام بيتنا «حكيمة» وهي دائمًا تجلس أمام الباب وأطفالها حولها ودائمًا تفرق فتات الشاي في جدول المجاري.

مع كل هذا استمتع مشاهدة ماذا يحدث في الشارع كسناريو فلم ولا أحفل بالخوف الذي يجري بداخلي.

كانت أذناي قد اعتادتا على الصوت الحزين للعندليب الأسمر وقارئة فنجانه كنت أدرك أن الشريط الاسود الصغير قد زج الآن في المسجلة وكنت أحرّك شفتاي مع الأغنيه.

تجد «چاسب»دائمًا في غرفته ، غارقًا بأفكاره أو يقرأ كتاب ما ، أو في اجتماع مع أصدقائه يدخنون السجائر واحدة تلو الأخرى ويسافرون مع دخانها ويحتفلون حينها بالمحاضرات وتبادل الأراء حول الأدب والشعر والموسيقى ويتباحثون على مواضيع لم تكن تمارس في شارع ١٤.

كلما دخلوا الممر الطويل المظلم ، ليصلوا إلى ساحة البيت قد ترى كل واحد منهم يحمل كتابًا أو كراسة تحت ابطه ، يمضي بخطوات واثقة ذلك قد حفر صورة شفافة وراقية في ذهني فالواحد اذا رءاهم يرتاح له ضميره.
كان الخريج الوحيد من معهد إعداد المعلمين فقد اكمل دراسته وأوَّل من حاز على شهادة جامعية حينذاك في الشارع ، كان بمثابة فخر لعائلتنا على الأخص لأبي ، فكلما دخل مجلس أو انقعدت جلسه مع الأقرباء تجده مبتسما تعلو وجناته فرحتهمفتخرا بابنه المعلم وانجازاته ؛الجيران يطالعونه بنظرة مثقف وشخص أمين وياخذون رأيه بعين الاعتبار ، اذ تجده في شارع سرعان ما تعرف انه هو طويل القامه ونحيف بساقين طويلين ووجهه اسمر ونظارته الكبيرة التي تغطي عينيه الحافلتين بالخير وشغف وحب الاستطلاع وشعر صدره الناعم التي يطل من فتحة القميص ولحيته المهذبة تعكس براءة شبابه وحب الجلوس بجانبه فإذا رأيته يحييك بهدوء وسلام...

كان شباك نافذة غرفته مشرف على الشارع حيث يجلس الأولاد ويلعبون الغميضة وضجيج عراك البنات على دور الصقله وضحكات متتالية للأطفال على بعضهم واصوات تحية وسلام جيراننا لبعضهم حين يلتقون على الرصيف المجاور لغرفته وكنت أجده محظوظًا لامتلاك شباك يطل على الشارع.
الإنسان في حالة اكتئاب أو حين يواجه موجة حزن ، يجب أن يهرب ويدير ظهره على كل الآلام التي تسبب له وجع الراس فأمتلاك نافذة وسط هذه الغوغاء يعتبر امتيازا كبيرا.
كان يلح علي ترتيب أثاث الكتب بأستمرار ونحن الصغار (أنا وأخواني الأصغر مني سنًا)
كان علينا الامتثال لأوامره شئنا أم أبينا.
فترتيب الغرفة يتطلب المساعدة من قبل الاخرين وهي أصعب وظيفة كانت لي حينذاك.

الغرفة مملوءة بكافة أنواع الكتب الصغيرة والكبيرة نحيث كنا نجلس ونجتمع حوله ، كانت إحدى هواياته المفضلة مسح وتصليح وختم الكتب الجديدة والقديمة بختمه الخاص وعد واحصاء الكتب.

كنا ان جلسنا جنبه علينا أن نجلس جلسة الصمت الخانقة من اجل أن لا يشتت رباط افكاره حين يختم على الكتب اسمه أونخفض أصواتنا الي حاله همس في أذن الآخر وذلك يتتابع مع نظراته الحادة من خلف النظارة يلزمنا الصمت مجددًا حينها يصبح كل منا يطالع بعضنا بنظرات متوجسة ثم نخاطب بعضنا بتحريك شفاهنا.
كانت الصمت احيانا يطول فيصبح مضحكا حتى انفجار قنبلة الضحك من قبل أحد المشاكسين الصغار الذين همسوا نكتة ما حول ملابسهأو كتبه أوصور احدى الكتب وماكادوا ينتهون من آخر نكتة حتى أتبعوها بواحدة أخرى تملأ الجلسة حالة هيستريا لم يعد بامكاني ككبيرتهم أن أمنعهم من الضحك فكنت أحسبه تفاديًا لاساءة الأدب في حضرته.
تنتهي ضحكاتهم مع صرخة أو لوية أذن أحدهما وكان ذلك مؤلم جدًا لدرجة الاحمرار من شدة الجر وكذلك كان يفعل في صفوف درس الرياضيات لتهدئة طلابه المشاغبين الذين باتوا لايفهمون لغة اللسان الناعم وقد تطاولت ألسنتهم على المعلم وكم كان يملؤني هذا بالغبطة والفرحة حين يسكت أحد أولئك الطلاب الغير مؤدبين من أحمرت أذنه من شدة الجر وفي يوم التالي تجد أولياء أمر ذاك الطالب يعاتبون أمِّيأو يشكون إلى أبي بالنسبة لما حصل في الصف ، وكان أخي يرد عليهم فيقول :
-(خلي اهلهم يحچون وياي...)

ولكن في كثير من الأحيان كنت أصادف هولاء الأولياء يشكرون أخي ويرسلون تحية وسلام على معاقبة ابنهم الضال فهو في البيت كادت تصرفاته لاتطاق فتجد الأم متبسمة وفرحة لعقوبة ابنها..!

يستمر «چاسب» بمسح الكتب وختمها بحبر أزرق حتى لايضيع أي كتاب من مكتبته.
كانت قلوبنا تذوب شوقا لسرد قصة أوحكاية من ايام الجامعية أوقصة طلابة ورسوبهم في الإمتحانات أوذكريات أيام المراهقة في القريه!

حين كان يتنافس مع عمه الصغير على اخذ مكان الدلع والحنان في قلب جدي كيف كان يخسر نتيجة غش المتنافس المشاغب وفرحته حين يفوز بقلب جدي وكانت مكافئته الكبرى هي الركوب على ظهر الحمار الصغير! من حافة النهر إلى بيت جدي الذي تظلله قمم اشجار السدر والنخيل وكان يصف كل من أركان البيت بدقة ولهف ، لاينسى جزء صغير منه وكأنما نعيش بداخله ، ويحكي لنا كيف كانت جدتي تخبز في تنور الطين وكيف كانوا يعيشون أيامهم ويترزقون باصطياد السمك والسباحة في «الكرخة»إلى ليال الشتاء الطويلة والنوم على الأسطح والنجوم المتلألية وكيف كان يتمنى الكل أن يقتبس باقة النجوم من السماء الصافي ، كانت إحدى القصص المفضلة لدي.
كنا نذوب في حديثه ، ما أجمل حكاياته في حال صمتنا وكنا نترقب حدوث شي ما في القصة ورنين حنجرته وصوته في طريقة سرد الكلام وتسلسل الأحداث يجعلنا نستمع إلى آخر ما يقول لنا ونحن نزيل الغبار من كتب الغرفة.

كانت الشمس تغيب رويدًا رويدًا من على حافة سطح الطارمة والظلال يجتاح الحوش والدور الامامة لبيتنا العتيق ، مع انخفاض حرارة الشمس كانت الحياة قد رجعت لشارع ١٤ ، ارتفعت هتافات الأولاد وصياح البنات ، وتبادلت اصوات الجلبة والتحيات وهدير السيارت المارة وتحديق الجيران في أوجهه سائقي السيارات لمعرفة هويتهم والفضول الى أي بيت يتجهون وأصوات فتحة دكاكين مصلحي المكانيكية في الشارع الرئيس وفتح «مش حسن»دكانه البقالة.

كل هذا النشاط في المساء، فالمساء كان يعني الكثير لجيراننا، يتفقدون بعضهم البعض ويكسبون آخر الأخبار وما حدث في بيوتهم وهكذا الكل يشارك في شرب الشاي والأحزان في السراء والضراء.

كل هذه الغوغاء ونحن لازلنا نحبس انفاسنا في الغرفة مع الكتب.
طبع خاتمه الازرق على احدى كتبه المفضلة لديه، يحتوى الكتاب على سيرة ذاتية لشعراء وكتاب كبار وقال ببطء وكانه فرمان:

- خل ايسوون لنا چاي....

و ما لبث حتى دق الجرس، كان الباب يطرق فعلا وهذا يعني تحررنا من الوظيفة الشاقة ونحن بوضوح نعلم من خلف الباب ومن وراء جلجلة الجرس، انهم اصدقائه المثقفين.

كنت مستغرقة في حلمي للحصول على كتابي المفضل، تلاحقه عيناي عن كثب اين يضع الكتاب. فانا رأيت صورة جميلة لامراة في الكتاب اخذتني نظرتها الحزينة معها، فكنت اجعل خطتي لارسم وجه المراة الشاعرة تلك حتى اتباها برسمتها امامه.

لكزني صوت ابي وهو يقول:
- فكوا الباب... فكوا الباب...

ها انا اركض حافية القدمين على الموزاييك الرمادي الذي غسلته امي قبل قليل والحرارة ورائحة البخار تتصاعد من الموزاييك وتاخذ ذهني معها الى الفناء وانا متجهه نحو الممر الطويل المظلم لافتح الباب الصغير الاخضر اللون لاستضافة اصدقائه المثقفين...

البائع العجوز

وضعت التومان (٣) على المنضدة ذات الجلد الأسود الممزق ، فسألني:

:- (اش تريدين ؟)
فأومَأتُ بيدي إلى كيس البسكويت الجاثم على صدر المنضدة بجوار كيس بذور عباد الشمس المحمّص على يد زوجته العجوز:
:- (بسكوتة!)

فأخذ التومان وأعطاني مقدارًا من البسكويت المدورة الشكل.

نادرًا ما يأتي أحد من المارة أو أطفال الشارع ليشتري كوبًا من بذور عباد الشمس المحمص ملفوفا بورقة من أوراق كتب العلوم أو الحساب المدرسية المهملة.
كانت لفة البذور مليئة بالملح حيث تجد نصفها خال من البذور والنصف الآخر مرٌ علقم.

كان «مش حسن» يفتح كل يوم بقالته أوَّل الصباح ولو بتثاقل ناتج عن كبر سنة قبل أن يفتح مصلحو السيارات ورشاتهم.

بقالته تقع في الشارع الرئيس على ركن شارع ١٤ ، تليها ورشة مصلح العجلات في الشارع الرئيس من ثم محلات و ورشات مصلحو السيارات واللحام والنجار.

كان الشارع الرئيس ورصيفه مكتظا بالسيارت والسلع وقطع الغيار المستخدمة في تصليح السيارات يتضح لك من كثرة الزيوت السوداء التي غطت الأرصفة ووساخة فضائه الملوث بدخان محركات السيارات وأصوات المطرقات وصيحات العمال ومع هذا كان «مش حسن» في هذه الغوغاء يجلس صامتًا وبارتياح ،

(٣) عملة ايرانية تساوي عشرة ريالات ايرانية

متجمد لساعات وساعات على كرسيه الكبير ذوالجلد الأسود الذي يحكي توالي العقود من السنين وقد لف عليه قطعًا من القماش لتآكل حوافيه المعدنية ينتظر قدوم أحد من الزبائن.

كان البائع العجوز هذا ، طويل القامة بشيء من النحافة ، كان وجهه متجعدا جاف البشرة كالزبيب من الجبهة إلى تحت ذقنه ، تحكي تلك التجاعيد سنينه الخوالي التي لايعلم بكنهها إلاَّ هو بعد الله وكانت نظارته سميكة كبيرة قد غطت نصف وجهه وقد عكست عينيه ذات الأهداب المعدومة أكبر من اللازم. كان شعره قليلا رمادي اللون وكانت صلعة رأسه ذات لمعان تجلب الانتباه.

كانت بقالته كبيرة لها جدران باهتة لم تر طلاء منذ زمن طويل. على جدرانها مدرجات ورفوف معدنية لرص البضائع ، حيث تتناثر هنا وهناك في فوضى عارمة تتربع فوقها طبقات من التراب والغبار تدل على فوات تأريخ إستهلاك تلك البضائع.

نسيج العنكبوت هو الحاضر الآخر في فوضى المحل حيث انك تلمحه بسهولة على علب معجون الطماطم والفاصوليا.

البعض يعتقد ان «مش حسن» يعرج بسبب فقدانه إحدى رجليه بحادث قطار حين كان يعمل بالمحطة أيام شبابه وهو الآن يستخدم رجلا اصطناعية... لا...
انها كانت مجرد تكهنات لكن المهم هو أن هذا الأمر كان يشكل جدار خوف ورعب خانق للاطفال.

يصعب على «مش حسن» الترجل من كرسيه وايصال الزبائن ما يطلبون فهو يستمد العون أحيانا من الزبائن أنفسهم عجزا منه أو خباثة في نفسه أواستعلاء...لا أعلم.
هو لا يثق في أحد فهناك أطفال في الشارع مشاغبون يسببون له الإزعاج ، عكست ذلك زوجته العجوز حين اشتكت ذات مرة عندما كانت تفضفض لأمي.

كلما أرسلتني أمي لشراء حاجة من البقاله تلك ، كنت في طوال الطريق أدعو الله أن يكون «مش حسن» في مزاج طيب لأنه كان كثيرا ما في ضيق خلق وكآبة يطلق الشتائم والسباب دونما سبب وذلك كان ما يحرجني ويثير استفزازي ويدعو للخجل على الرغم مما أكن له من احترام.

فأنا دائمًا القي عليه التحية وأساعده على جلب بعض أمتعته من الرفوف المكثفة بالغبار ، لكنه بدلا من أن يشكرني لمساعدتي له ، كان يرسل لي كما من الشتائم الموجودة في معجمه ويتمتم كلمات لم أفهم معانيها بصوت معتوه فسرعان ما ألوذ بالفرار.

يجلس «مش حسن» متجمدا متكئا على الكرسي محدقا بالشارع الرئيس ، يراقب المارة من الناس والسيارات.

عندما تنظر إليه كأنه صورة ميت وضعت في إطار ، لم يتحرك لم يرمش له جفن ولم يتكلم على رغم الغوغاء المحاطة به وصرخات عمال في سبيل كسب لقمة العيش وصدى مطرقة مصلح العجلات وهو لايزال يسرح في فضاء خياله.

«مش حسن»أعجمي قذفت به الأيام من بلدة «ازنا»التي تقع خلف الجبال ،إلى هذا الحي قبل مجيئنا وعاش مع السكان الأصليين أي العرب.

كان غالبية رجال شارع١٤ عمال يعملون في "مصنع بارس" للورق والمقوى والبعض منهم كان يعمل في شركة قصب السكر.

كانوا يجتمعون في الصباح الباكر في مكان معين بزاوية من الشارع قبل ان يفتح «مش حسن»بقالته ، ينتظرون قدوم الباص كي يقلهم إلى المصنع. كان صوت ذلك الباص مأنوسا لهم فهم يعرفونه من بين الباصات.

كنت أستغرب من اسمه فهو غريب حقا يختلف عن أسماء الرجال في حيّنا ، لم اكن أعلم ان القسم الأوَّل للاسم هو لقب لمن يزور الضريح المقدس للامام الرضا (ع).

كان الأعاجم يطلقون اسم «مش»(اختصار "مشهدي") على من يزور ضريح الإمام الرضا سلام الله عليه في مدينة مشهد.

حتى ذلك اليوم لم يزر أحد من سكان شارع ١٤ مدينة مشهد وبالتحديد ضريح الامام الرضا الا زايره " ام عباس" وزوجها المرحوم "حاتم" فالعرب يطلقون على الزوار بلقب " زاير" أو"زايره".

انا لم ار المرحوم حاتم فهو قدمات قبل أن أولد. حين تقسم صديقتي ليلى بنت حكيمة عند دورها في لعبة «الهويشة» وتقول:

- (وداعة روح يدّي زايرحاتم انا ما زغلطت)

حينها أعرف أن حاتما هذا كان قد زار الإمام الرضا.

كان يتخيل لي جدها بصورة ضبابية ، كأنه صورة بالأسود والأبيض معلقة فوق القبر. ذكر اسم جدها بحد ذاته كان كفيلا بتسرب الخوف إلى داخلي وبالتالي تصوير القبر كان يسبب لي كابوسا خانقا.

و اما جدتها «الزايرة ام عباس» اللطيفة المعشر تلك كانت حين تنظر اليها تجد السكون والاطمئنان في وجهها.

تجلس أحيانا أمام الباب متكأة ، تهرش شعر رأسها من بقايا حنّاء البارحة وتضبط عصابتها السوداء على رأسها فتنفض ثوبها الفضفاض «الكودري» الأسود حينها يظهر الوشم الأخضر ذو النقوش الجميلة العربية فوق حاجبيها وعند أطراف قدميها.

كانت تتراءى لي قطعة أثرية جميلة فكلما أشاهد الوشم يراودني الفضول كيف أن جسدها قد تحمل ألم وضع تلك الوُشوم.
كانت في بيتهم صورة معلقة باهة للزايره "ام عباس" قصيرة القامة وفيها من امارات الفرح لوصولها مع زاير حاتم زوجها المرحوم إلى مدينة مشهد حيث كان المرحوم قد واقفا جنبها بقميص أبيض وبنطلون رمادي باهت اللون من موضة "بيتلي" القديمة يضع كل واحد منهما يداه على صدره تحية واحترامًا للإمام الرضا (ع) صاحب الضريح.
كانت عينيهما في الصورة لاتشيان الا بالعجب والحيرة من وصولهم إلى مدينة مشهد وكان الاطفال البعض منهم جالسين بجوارهم والأكبر واقفا على قدميه أشعث الشعر مغبر الوجه حتى أن واحد منهم يخجل ان يقول هذا أو ذاك هو انا.

كان الجميع يناديها بالزايرة حين يلقي عليها التحية صباحًا أو مساءً ومن ضمنهم أمي وأبي:

:- (الله بالخير زايره اشلونچ)
وهي ترد عليهم وكأن في صوتها وعر وتوكع ورعشة العجائز:
-(الله ايسلمچ بعد عيني ، الله ايخلي أولادچ وايخلي لچ ابوچاسب).

اتذكر حين كانت أمي تذهب إلى السوق وبيدها سلتها الحمراء بعبائتها التي تمشي معها كالظل.

كانت زايرة «ام عباس» وزوجها المرحوم «زاير حاتم» هما اللذان قد وصلا مشهد المقدسة قبل ان يصلها «مش حسن» وكانت باقي الجيران ياملون في المستقبل القريب أو بعد التقاعد ان يركبوا القطار أو الباص وصولا إلى المشهد حتى يحصلوا على لقب زاير أو زايرة.
عندما اكتشفت اسمه «حسن» ومش تعني «زائر» ، اتضحت لي الصورة اكثر ، فهو كان لي غريب الأطوار لحد ما ، كنت اظن ان هناك شيء ما في قلبه البائس إلى ان ذلك اليوم التعس قد حدث! وبالضبط ذلك المساء الباهت اللون ، حيث كانت سماء الشارع خافتة ، حين أخبروه بموت ابنه الشاب المتزوج حديثًا.
لكن ما أستغرب منه هو انه في اليوم التالي فتح باب بقالته وكان قليل الاكتراث بما حدث يرمق بنظراته العمال المحتشدين ويرسل بنظراته من وراء النظارة الكبيرة ويكيل للجميع السب والشتائم.
اتذكر ذلك اليوم وكأنه قدحدث لي بلأمس حين نزلت من الباص الذي كان يعود بنا من «الحميدية» حيث كنا نزور أخوالي برفقة أمي وأبي فكانت لافتات التعزية من قبل الجيران وسكان المحلة تملأ الحائط وواجهة بقالته.

كانت زوجة «مش حسن»تروي لنا كيف مات ابنها في حادث سيارة مريع في طريق «أزنا» التي تقع وراء جبال زاجروس في طريقه لإرسال زوجته إلى اهلها.
لم يصل خيالي إلى هناك ولم أعرف أين تكون ماوراءجبال زاجروس.

كانت العجوز تسرد لنا قصة زوجة ابنها الراحل كيف تخلت عن ابنها الطفل ذو الثلاثة أشهر ، كان صوت ها يرتعش والدموع تملأ عينيها الرماديتين لكنها لم تبك اطلاقا.

جلبت امرأة «مش حسن» قدحًامن الماء البارد من الباب الخلفي لبقالته الذي يربطه بالبيت مباشرة ، تتعثر بمشيتها تتثاقل قدميها تقترب منه وتقول له بلسان عجمي ونبرة جبلية وهي تمسك زاوية عبائتها بأسنانها:

- ماذا فعلت ؟ هل أمسكت بهم ؟

- كلا... لم ياتوا للبقالة لحد الان.

و ظلّت تحدق بعينيها الصغيرتين الشاحبتين في فمه ويستمر تاركا القدح على المنضدة.

- دعيهم ياتون الى هنا ثم انظري ما أفعل بهم.انهم يظنون عبثا ان بامكانهم التلاعب بي.

- ربما قد فعلوا ذلك مرارا وانت لم تكن تعلم... لم انت ساكت عنهم ؟

ثم كفّت عن كلامها فراحت تتذمر ، تسب وتلعن.

حين التفت «مش حسن» لمح ثوبها المهترئ وجادرها الذي يكنس تراب بقالته كالمكنسة وهي تهبط إلى ساحة البيت لتجلس امام عتبة الباب مخنوقة وخافتة صامتة ترسل نظراتها عبر الشارع إلى المارة من الناس فراحت ترسل خيالها نحو افق غامض ، خيال يمسك خيالا آخر ويجر قصص غريبة وحدة تلوى الاخرى منها حول دجاجتها السوداء وحول زوجة ابنها الراحل وحول عمارة سيد مهدوي وحول اللصوص الصغار المشاغبين وكيف استطاعوا ان يتمادوا على المنضدة ومحل البقالة وظلت تخطط بخيالها كيف تهزم المراهقين المر أو غيين المشاغبيين وهي تعض على شفتيها الباهتتين فتبلع ريقها وحينها تشعر بأن أسنانها الإصطناعية تكاد تقفز من فمها ، تحرك شفتيها لتثبت الأسنان ويدها على خدها ويحوم ظلال خيالها على اللصوص ويراودها شعور كراهية شديدة وازدراء.

اما بالنسبة للسراق الصغار تعتبر لدى «مش حسن» فتنة ومؤامرة لا تقارنها أي

فتنة أخرى فهو كان يفتح بقالته بشق الانفس وهو أعرج وكانت البقالة مصدر رزقه لم يعد يحنلأي شيء ، لا لوطنه الغائب عنه على مدى عشرين سنة ولا لأبنائه الذين لم ياتوا لزيارته طوال هذه السنين ولا حتى لابنته الكبيرة التي كانت تسكن بالقرب منه في آخر الشارع وأيضًا كانت منقطعة عنه ، لم تكن هناك أيصلة ولا رابط قوي بينهم وإذا سألهما أحد عن ابنتهما تلك يتملصان من الرد بطريقة أوأخرى.

كانت امراة مش حسن تتوق شوقا ان تعود العلاقات بينهما لكن كبرياء وغرور زوجها كان يحول دون ذلك. كان اختلافهم حول ملكية قطعة أرض امتلكوها حين وصلوا إلى بلدتنا حينما كان اهلنا يسوون حساباتهم مع العشائر الأخرى في عراك حول أمور تافهة كقضية الجواميس المسروقة أو اعتراض على زواج بنت العم لابن العم.

كان يمتلك اكثر من ما يمتلك «مش حسن»على الركن الآخر من الشارع وكانت مهنته تجصيص الجدران كباقي ابناء«مش حسن»حيث كان عملهم الوحيد حصريا ويحترفون فيه جاؤوا به من ازنا لم يمارس احد من اهالي الحي تلوين وبياض الحيطان.

الأمر الوحيد الذي كنا نعلمه هو أن زوج ابنته يركب الدراجةكل يوم تاركا البيت نحو عمله والمساء يجوب نفس الطريق في العودة إلى البيت راكبا دراجة قديمة يضع عليها صندوقا حديديا فيه أدوات عمله مرتديا قبعته الشتوية على شعره الأبيض الأشعث ، بعينين صغيرتين باهتتي اللون ومن أطراف عينيه تتدلى خطوط تحكي اثر الشمس المحرقة كأنّ تلك الخطوط مرسومة بيد أمهر الرسامين وشاربه الكث الذي يغطى فمه وكأنه ليس عنده فم يعكس انه غير عربي وأحيانا تراه يلقي التحية على اهالي الشارع تحية باردة برفع يده فقط.

كانت تبدو على ملامحه الجدية والصلابة ويبين انه لن يجرؤ على كسر حائط كبريائه ليصافح ابا زوجته «مش حسن» ولا زالت علامات استفهام في ذهن الناس بسبب عدم قبول أحدهم الآخر ولا يجرأ أحد أن يتدخل أو يدس أنفه في القضية. لأنهم بالتالي أسرة واحدة والتدخل بين أفراد الأسرة أمر مذموم.

كان «مش حسن»غير مكترث لزوجته فهو أحيانا يتشاجر معها ويسبها بأبشع الشتائم ويظل يحوم مثل البومة في جوارها غاضبا وأحيانا يضربها بعصاءه على ظهرها ويديها وآخر الأمر يفجر غضبه على زبائنه بالامتناع عن البيع.

«مش حسن» اعتاد على ضجيج مطرقة مصلّح العجلات وغوغاء السيارات في الشارع الرئيس وكان ينكمش لساعات على كرسيه ويغرق في خياله الغريب بين جدران بقالته حتى يحل الظلام ويقطع أفكاره وحينها يتجه نحو باب بقالته الصفيحي لاغلاقه ثم يمشي بقدمه الإصطناعية فيجتاز الرصيف متجها نحو بيته يترقب الخارج.

بعد دقائق حتى تراه واقفا عند عتبة باب بيته مجددا في ملابس النوم ماسك عصاه يهزها بعنف ويثرثر مع نفسه لا يفهمه أحدا وتارةأخرى تجده في ركن الشارع تارك مقعده يحدق إلى نقطة بعيدة ولاينطق بكلمة.

هناك أقاويل واشاعات قريبة حيكت حوله في الشارع تتحدث عن جنون «مش حسن» ويوكد الناس والجيران على اصرارهم لوجود هذه القصص حتى يرتاح ضميرهم وشعور الفضول بينهم. تجدهم يفسرون وجود لغز ما أمام عتبة الباب وحديث جلستهم المستمرة.

الشيء المؤكد والمنقول والمعقول ان «مش حسن»هذا أصبح يرفض البيع للزبائن والجيران فكانت البقالة أغلب أيام الأسبوع مغلقة إلاَّ إذا وجدته يوما على مزاج طبيعي وذلك نادرا ما يحدث حيث يفتح البقاله تجد الحامض يصعب عليك ابتلاعه أو صندوق البطاطة الذابلة والطماطم الممرود والناشف يطل من على واجهه البقالة وعلى رغم من ذلك كان يفتح بقالته أحيانا للتخلص من هواجسه وضميره الواعي ولم يجرؤ على إفشاء سر اللصوص المشاغبين فهو كاد أن ينسى أمرهم لكنه ما زال يخطط للامساك بهم وذلك ما يدل على كبريائه وغروره.

تجد الناس أحيانا يتسألون عن سبب ازدياد سوء حالته لكن الجواب الذي يتلقونه من زوجته كان غير مقنع بحد ذاته حيث تجدها هي الأخرى في حيرة من أمره. لا تحل ولا تربط وتجوب الساحة ما بين البيت والبقالة ايابا وذهابا

وحفيدها راقد مهمل. في هذه الحالةكان «مش حسن» حاكما عليها ومهما حصل يفرض كلمته عليها وأحيانا تجده في حالة غضب وجنون ويهددها ويسلب راحتها إلا أنها كانت تتأقلم مع الوضع الموجود فتعتمد عليه ولا تخطو خطوة من دون علمه.

مع ذلك كان لها شيء من الوجاهة والمكانة بين الجيران حيث كانت عن غنى لمساعدة أحد أو مساعدة أولادها الذين لا يذكروها إلاَّ في ليلة عيد نوروز رأس السنة الشمسية.

بقي «مش حسن»يعاني من نوبات فزع وخوف وكانت تلك من علائم تقدمه في السن تتسرب له الدهشة والحيرة يظل واقفا دون حراك يتجمد نظره على نقطة في مكان ما...حين أواجهه في تلك الحالة يتنابني الشعور بالخوف والهروب من موقفي هذا وشعور التعاطف معه أو شراء شيء ما من بقالته حتى لا يحزن أو يحس انه عاجز عن البيع كان شعورا غريبا يتسرب إلى روحي وأتامل في صراع الحياة والموت ولا اكتفي بهذا بل كنت أسافر في عالم الخيال واتساءل من نفسي:

- هل سيموت «مش حسن» ؟يا ترى أين سيدفن ؟

و صوره التابوت الخشبي المخيف الذي ستطوف به الايدي ودورانه السريع في البيت وازدحام الناس وضجيج ونواح زوجته وبكاء بنته وهي تحتضن امها...

و وقفة ابنائه دون بكاء وعويل صامتين كالعاده يفكرون في تقسيم ميراث ابيهم بينهم يتسابق كل واحد منهم على حصول الجزء الاكبر من الحصة. كل ذلك كان يطوف برأسي.

لكنني عادة كنت اصطنع الضحك لأغطي خوفي الذي يسكن بداخلي نتيجة تلك المشاعر المخيفة لكن ضحكتي هذه المرة لذلك الأمر الرائع الذي كل واحد كان يتمسك به عند الضيق حين يصبح كل الكون يتعاون على انهزامك وانت تتمسك بخيط رفيع من الأمل لكي تعيش لكي تتنفس لكي تستمر الحياة... و انا ماسكة نقودي بيدي لشراء الحامض والبسكويت افكر كيف القي التحية عليه الا اني واجهت الشيء الذي كنت بانتظاره.

نعم... كانت بقالته مغلقة ، لم أصدق ان حياة «مش حسن»تنتهي بهكذا طريقة ، صعب علي قبول موته وقامته الطويلة ووجهه التعس حين يواجه ضحكتي الباهتة وهو يجر رجله الاصطناعية على أرضية البقالة ليجلب لي ما أطلبه منه وصدى صليل البراقة والمعدن لرجله تلك يملأ الجو ، هكذا كانت صورته ، مستقل غير متعاون ومغرور!

و في ليلة وضحاها هزمته قوة الموت وجذبته الأرض لينام إلى الأبد بين ذراعيها. مات «مش حسن» وورثت عنه امراته حياة فارغة من روح المثابرة والحماس. اصبحت هي وحفيدها وحيدة بقت جاثمة على عتبة الباب ماسكة رأسها بيديها تمسك جادرها بأسنانها تلقينظرة على حفيدها والحزن يرافقها وتزف أفكارها أمواج من الشتائم واللعنات قد انبعثت من قبر زوجها.

.....النهاية.....

إيميل الكاتبة:
marya.latifi@gmail.com